ديناً[1] قيما مستقيماً[2] ملّة إبراهيم عليه السّلام أبى الأنبياء ، حنيفاً ، بمعنى المائل عن سائر الأديان إلى الحنيفيّة السّمحة الّتي بعثه الله تعالى بها وبعث بها محمّداً ﷺ فأكملها له وأتمّ بها النّعمة عليه ورضيها له ديناً . روى الإمام أحمد عن ابن عبّاس رضي الله عنهما أنّه قال : قيل لرسول الله ﷺ أيّ الأديان أحبّ إلى الله تعالى ؟ قال : الحنيفيّة السّمحة[3] وروى الإمام أحمد عن عائشة رضي الله عنها قالت : وضع رسول الله ﷺ ذَقَني على منكبه لأنظر إلى زَفَن[4] الحبشة حتّى كنت الّتي مَلَلْت فانصرفت عنه . قال عبدالرّحمن عن أبيه قال : قال لي عروة إنّ عائشة قالت قال رسول الله ﷺ يومئذٍ : لتعلم يهود أنّ في ديننا فسحة . إنّي أرسلت بحنيفيّة سمحة . أصل الحديث مخرّج في الصّحيحين والزّيادة لها شواهد من طرقٍ عدّة وقد استقصيت طرقها في شرح البخاريّ ولله الحمد والمنّة [5]

وتثبت الآية الكريمة استقامة دين إبراهيم عليه السّلام الحنيف بالقول : ﴿ وما كان من المشركين ﴾ إنّ إبراهيم عليه السّلام يميل عن سائر الأديان بسبب الإشراك مع الله تعالى غيره إلى الحنيفيّة السّمحة وعقيدة التّوحيد . وإنّ في القول : ﴿ وما كان من المشركين ﴾ تعريضاً بمشركي العرب في المقام الأوّل وتعريضاً باليهود والنّصارى الّذين زعموا أنّ إبراهيم عليه السّلام كان يهوديّاً في عرف اليهود ، نصرانياً في عرف النّصارى .

قُلْ إِنَّ صَلَاتِي وَنُسُكِي وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿١٦٢﴾
لَا شَرِيكَ لَهُ وَبِذَٰلِكَ أُمِرْتُ وَأَنَا أَوَّلُ الْمُسْلِمِينَ ﴿١٦٣﴾

الآيتان الكريمتان تبدوان من النّظرة الأولى أنّهما متلاحمتان وتبدأ أولي الآيتين

---

(١) الجدول في إعراب القرآن وصرفه تصنيف محمود صافي مراجعة لينة الحمصي ٢٨٣/٤ .
(٢) تفسير الطّبريّ ٨٢/٨ .
(٣) تفسير ابن كثير ١٩٨/٢ .
(٤) الزّفن بحركتين : الرّقص .
(٥) تفسير ابن كثير ١٩٨/٢ .

الكريمتين على غرار الآية الكريمة السّابقة بجملة : ﴿ قل ﴾ خطاباً للمصطفى ﷺ آمرةً له عليه الصّلاة والسّلام أن يقول لمشركي العرب في المقام الأوّل إنّ صلاتي وذبحي ونحري وحجّي وقيامي بسائر العبادات وحياتي وموتي لله تعالى وحده لا شريك له ربّ العالمين مالك كلّ شيء ومربيّ كلّ مخلوقٍ بآلائه ونعمه الّتي لا تُعدّ ولا تُحْصى .

لقد نصّت الآية الكريمة على الصّلاة باعتبارها أهم الأركان بعد الشّهادتين ولأنّ المصلّي ، وبخاصّة حينما يكون ساجداً ، أقرب ما يكون إلى ربّه . فالصّلاة رمزٌ لسائر العبادات .

ونصّت الآية الكريمة على النّسك بمعنى الذّبح [1] لأنّه من معالم الحجّ وشعائره ، وبسبب ذلك اتّسع لفظ المنسك كي يشمل سائر أعمال الحجّ بل سائر العبادات ، ولأنّ العرب في الحجّ وغير الحجّ انحرفوا قبل الإسلام عن الصّراط المستقيم فلم يعودوا ينحرون ويذبحون لله تعالى وحده بل كانوا يشركون معه جلّ وعلا سواه . وبهذا تصرف الآية الكريمة سائر العبادات لله تعالى وحده .

والآية الكريمة الأخرى تعمّق هذه المعاني فالصّلاة والنّحر والذّبح ، بل الحياة والممات لله ربّ العالمين وحده لا شريك له . لقد أُمِر المصطفى ﷺ بذلك ، وإنّ أمّته عليه الصّلاة والسّلام تبع له في ذلك ، كما أُمِر عليه الصّلاة والسّلام أن يكون أوّل المسلمين لله ربّ العالمين من هذه الأمّة المستسلمين الذّاعنين الخاضعين له جلّ وعلا . والآيتان الكريمتان في إخلاص العبادة لله تعالى والآية الكريمة التّالية في إخلاص التّوكّل .

قُلْ أَغَيْرَ اللَّهِ أَبْغِي رَبًّا وَهُوَ رَبُّ كُلِّ شَيْءٍ ۚ وَلَا تَكْسِبُ كُلُّ نَفْسٍ إِلَّا عَلَيْهَا ۚ وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ ۚ ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّكُم مَّرْجِعُكُمْ فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ ﴿١٦٤﴾

الآيتان الكريمتان السّابقتان في إخلاص العبادة وهذه الآية الكريمة في إخلاص التّوكّل على

---

(١) تفسير الطّبريّ ٨/٨٢ .

الله تعالى . وما أكثر المواطن في القرآن الكريم الّتي تمّ فيها الجمع بين إخلاص العبادة وإخلاص التّوكّل ومن ذلك قوله تعالى في سورة الفاتحة : ﴿ إيّاك نعبد وإيّاك نستعين ﴾ والآية الكريمة تبدأ على غرار آيتين كريمتين سابقتين بالقول أمراً للمصطفى ﷺ : ﴿ قل ﴾ والمعنى قل يامحمّد لمشركي قومك الّذين كفروا وصدّوا عن سبيل الله تعالى وأرادوا منك أن تلين لهم فيلينوا لك : أغير الله تعالى الّذي له جلّ وعلا وحده لا شريك له الخلق والأمر أطلب ربّاً سواه يربّيني بنعمه وآلائه ويكلؤني بعنايته ورعايته وهو جلّ وعلا ربّ كلّ شيء ومليك كلّ شيءٍ ومربّي بنعمه وآلائه كلّ شيء . إنّ ما تدعونني إليه من إشراك مع الله تعالى غيره هو الذّنب الّذي لا يغفره الله تعالى بينما أنا أدعوكم إلى الله العزيز الغفّار .

اعلموا أيّها المشركون أنّ كلّ نفسٍ كسبت ذنباً وإثماً عليها وحدها وزر ما كسبت وعقابه فلا تزر يوم القيامة ولا تحمل في ذلك اليوم المجموع له النّاس المشهود نفسٌ آثمةٌ وزر نفسٍ أخرى . ويوم القيامة إلى ربّكم مرجعكم فينبّئكم بما كنتم تختلفون فيه في الحياة الدّنيا من أمور الدّين ، وكما يعاقب المسيء يثاب المحسن . إنّ لسان حال الآية الكريمة يدعو هؤلاء المنحرفين عن الجادة إلى العودة إلى الله تعالى وإلى صراط العزيز الحميد كي يثابوا ويدخلوا الجّنة بإذن الله تعالى .

وَهُوَ ٱلَّذِى جَعَلَكُمْ خَلَٰٓئِفَ ٱلْأَرْضِ وَرَفَعَ بَعْضَكُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَٰتٍ لِّيَبْلُوَكُمْ فِى مَآ ءَاتَىٰكُمْ ۗ إِنَّ رَبَّكَ سَرِيعُ ٱلْعِقَابِ وَإِنَّهُۥ لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١٦٥﴾

إنّ الله سبحانه وتعالى ربّكم وربّ كلّ شيءٍ هو الّذي جعلكم خلائف الأرض بأن أهلك السّابقين وجعلكم تخلفونهم لينظر جلّ وعلا كيف تعملون . والخلائف جمع خليفة كما الوصائف جمع وصيفة [1] ولله سبحانه وتعالى الّذي خلقكم وأوجدكم من العدم وجعلكم خلائف في الأرض هو الّذي رفع بعضكم فوق بعضٍ درجاتٍ في المال والجاه

(١) تفسير الطّبريّ ٨/٨٤ .

والسّلطان وكلّ شيءٍ ليبلوكم فيما آتاكم وليختبركم فيما أعطاكم أيشكر الغنيّ القويّ أم يكفر . أيصبر الفقير الضّعيف أم يكفر ويجزع . إنّ الغنى والقوّة وما إليهما اختبارٌ من الله تعالى لمن أوتيها . وإنّ الفقر والضّعف وما إليهما اختبارٌ من الله تعالى لمن أوتيها . وإذا كان ثواب الغنيّ القويّ الشّاكر عظيماً وكان ثواب الفقير الصّابر عظيماً فإنّ عذاب كفر النّعمة والجزع عظيمٌ كذلك .

وتجمع الآية الكريمة بين عقاب الله تعالى السّريع العظيم الأليم وبين مغفرة الله تعالى ورحمته الواسعة : ﴿ إنّ ربّك سريع العقاب وإنّه لغفورٌ رحيم ﴾ وينبغي أن يكون للفظ الرّبّ المتّصل به ضمير الخطاب العائد للمصطفى ﷺ كبير دورٍ في تسرية المصطفى ﷺ والتّسرية عنه في هذه السّورة المكّيّة . إنّ ربّك يا محمدّ سريع العقاب للكافرين بالله تعالى المكذّبين لك الجاحدين لنبوّتك . وهذا العقاب يصّح أن يكون في هذه الحياة الدّنيا قبل الآخرة . والمعروف أنّ الله سبحانه وتعالى صدق وعده ونصر عبده وأعزّ جنده . وإنّ ربّك يا محمدّ لغفورٌ للمذنبين من المؤمنين رحيمٌ بهم لا يعاجلهم بالعقوبة بل يفتح لهم باب التّوبة على مصراعيه كي يتوبوا إلى الله تعالى توبةً نصوحا .

وإنّه بالمقارنة بين سرعة العقاب من ناحية وبين مغفرة الله تعالى ورحمته يتبيّن أنّ جانب المغفرة والرّحمة هو الأرجح كفّةً والأثقل وزناً . إنّنا بصدد المغفرة أمام لام التّوكيد الّتي لانجد ما يقابلها بشأن العقاب . ثمّ إنّ الكافرين من نصيبهم العقاب السّريع أمّا المؤمنون فإنّ من نصيبهم المغفرة الشاملة والرّحمة الواسعة . إنّ هذه الجزئيّة الكريمة الأخيرة من السّورة الكريمة ترجمةٌ للحديث النّبويّ الشّريف . لمّا خلق الله الخلق كتب في كتابٍ فهو عنده فوق العرش : إنّ رحمتي تغلب غضبي [1]

---

(١) تفسير ابن كثير ٢/٢٠٠ .

ثانيًا
سُورَةُ الأعرافِ
حتى نهاية الجزء الثامن

سُورَةُ الأَعْرَافِ

ترتيبها ٧ — آياتها ٢٠٦

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

الٓمٓصٓ ﴿١﴾ كِتَٰبٌ أُنزِلَ إِلَيْكَ فَلَا يَكُن فِي صَدْرِكَ حَرَجٌ مِّنْهُ
لِتُنذِرَ بِهِۦ وَذِكْرَىٰ لِلْمُؤْمِنِينَ ﴿٢﴾ ٱتَّبِعُوا۟ مَآ أُنزِلَ إِلَيْكُم
مِّن رَّبِّكُمْ وَلَا تَتَّبِعُوا۟ مِن دُونِهِۦٓ أَوْلِيَآءَ ۗ قَلِيلًا مَّا تَذَكَّرُونَ ﴿٣﴾
وَكَم مِّن قَرْيَةٍ أَهْلَكْنَٰهَا فَجَآءَهَا بَأْسُنَا بَيَٰتًا أَوْهُمْ قَآئِلُونَ
﴿٤﴾ فَمَا كَانَ دَعْوَىٰهُمْ إِذْ جَآءَهُم بَأْسُنَآ إِلَّآ أَن قَالُوٓا۟ إِنَّا كُنَّا
ظَٰلِمِينَ ﴿٥﴾ فَلَنَسْـَٔلَنَّ ٱلَّذِينَ أُرْسِلَ إِلَيْهِمْ وَلَنَسْـَٔلَنَّ
ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿٦﴾ فَلَنَقُصَّنَّ عَلَيْهِم بِعِلْمٍ ۖ وَمَا كُنَّا غَآئِبِينَ ﴿٧﴾
وَٱلْوَزْنُ يَوْمَئِذٍ ٱلْحَقُّ ۚ فَمَن ثَقُلَتْ مَوَٰزِينُهُۥ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ
ٱلْمُفْلِحُونَ ﴿٨﴾ وَمَنْ خَفَّتْ مَوَٰزِينُهُۥ فَأُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ خَسِرُوٓا۟
أَنفُسَهُم بِمَا كَانُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا يَظْلِمُونَ ﴿٩﴾ وَلَقَدْ مَكَّنَّٰكُمْ
فِي ٱلْأَرْضِ وَجَعَلْنَا لَكُمْ فِيهَا مَعَٰيِشَ ۗ قَلِيلًا مَّا تَشْكُرُونَ ﴿١٠﴾
وَلَقَدْ خَلَقْنَٰكُمْ ثُمَّ صَوَّرْنَٰكُمْ ثُمَّ قُلْنَا لِلْمَلَٰٓئِكَةِ ٱسْجُدُوا۟
لِـَٔادَمَ فَسَجَدُوٓا۟ إِلَّآ إِبْلِيسَ لَمْ يَكُن مِّنَ ٱلسَّٰجِدِينَ ﴿١١﴾

قَالَ مَا مَنَعَكَ أَلَّا تَسْجُدَ إِذْ أَمَرْتُكَ ۖ قَالَ أَنَا۠ خَيْرٌ مِّنْهُ خَلَقْتَنِى مِن نَّارٍ
وَخَلَقْتَهُۥ مِن طِينٍ ﴿١٢﴾ قَالَ فَٱهْبِطْ مِنْهَا فَمَا يَكُونُ لَكَ أَن تَتَكَبَّرَ
فِيهَا فَٱخْرُجْ إِنَّكَ مِنَ ٱلصَّٰغِرِينَ ﴿١٣﴾ قَالَ أَنظِرْنِىٓ إِلَىٰ يَوْمِ يُبْعَثُونَ
﴿١٤﴾ قَالَ إِنَّكَ مِنَ ٱلْمُنظَرِينَ ﴿١٥﴾ قَالَ فَبِمَآ أَغْوَيْتَنِى لَأَقْعُدَنَّ لَهُمْ
صِرَٰطَكَ ٱلْمُسْتَقِيمَ ﴿١٦﴾ ثُمَّ لَءَاتِيَنَّهُم مِّنۢ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ وَمِنْ خَلْفِهِمْ
وَعَنْ أَيْمَٰنِهِمْ وَعَن شَمَآئِلِهِمْ ۖ وَلَا تَجِدُ أَكْثَرَهُمْ شَٰكِرِينَ ﴿١٧﴾ قَالَ
ٱخْرُجْ مِنْهَا مَذْءُومًا مَّدْحُورًا ۖ لَّمَن تَبِعَكَ مِنْهُمْ لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنكُمْ
أَجْمَعِينَ ﴿١٨﴾ وَيَٰٓـَٔادَمُ ٱسْكُنْ أَنتَ وَزَوْجُكَ ٱلْجَنَّةَ فَكُلَا مِنْ حَيْثُ
شِئْتُمَا وَلَا تَقْرَبَا هَٰذِهِ ٱلشَّجَرَةَ فَتَكُونَا مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿١٩﴾ فَوَسْوَسَ
لَهُمَا ٱلشَّيْطَٰنُ لِيُبْدِىَ لَهُمَا مَا وُۥرِىَ عَنْهُمَا مِن سَوْءَٰتِهِمَا ۚ وَقَالَ
مَا نَهَىٰكُمَا رَبُّكُمَا عَنْ هَٰذِهِ ٱلشَّجَرَةِ إِلَّآ أَن تَكُونَا مَلَكَيْنِ أَوْ تَكُونَا
مِنَ ٱلْخَٰلِدِينَ ﴿٢٠﴾ وَقَاسَمَهُمَآ إِنِّى لَكُمَا لَمِنَ ٱلنَّٰصِحِينَ ﴿٢١﴾
فَدَلَّىٰهُمَا بِغُرُورٍ ۚ فَلَمَّا ذَاقَا ٱلشَّجَرَةَ بَدَتْ لَهُمَا سَوْءَٰتُهُمَا وَطَفِقَا
يَخْصِفَانِ عَلَيْهِمَا مِن وَرَقِ ٱلْجَنَّةِ ۖ وَنَادَىٰهُمَا رَبُّهُمَآ أَلَمْ أَنْهَكُمَا
عَن تِلْكُمَا ٱلشَّجَرَةِ وَأَقُل لَّكُمَآ إِنَّ ٱلشَّيْطَٰنَ لَكُمَا عَدُوٌّ مُّبِينٌ ﴿٢٢﴾

قَالَا رَبَّنَا ظَلَمْنَآ أَنفُسَنَا وَإِن لَّمْ تَغْفِرْ لَنَا وَتَرْحَمْنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ
ٱلْخَٰسِرِينَ ﴿٢٣﴾ قَالَ ٱهْبِطُوا۟ بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ ۖ وَلَكُمْ فِى
ٱلْأَرْضِ مُسْتَقَرٌّ وَمَتَٰعٌ إِلَىٰ حِينٍ ﴿٢٤﴾ قَالَ فِيهَا تَحْيَوْنَ وَفِيهَا
تَمُوتُونَ وَمِنْهَا تُخْرَجُونَ ﴿٢٥﴾ يَٰبَنِىٓ ءَادَمَ قَدْ أَنزَلْنَا عَلَيْكُمْ لِبَاسًا
يُوَٰرِى سَوْءَٰتِكُمْ وَرِيشًا ۖ وَلِبَاسُ ٱلتَّقْوَىٰ ذَٰلِكَ خَيْرٌ ۚ ذَٰلِكَ مِنْ
ءَايَٰتِ ٱللَّهِ لَعَلَّهُمْ يَذَّكَّرُونَ ﴿٢٦﴾ يَٰبَنِىٓ ءَادَمَ لَا يَفْتِنَنَّكُمُ
ٱلشَّيْطَٰنُ كَمَآ أَخْرَجَ أَبَوَيْكُم مِّنَ ٱلْجَنَّةِ يَنزِعُ عَنْهُمَا لِبَاسَهُمَا
لِيُرِيَهُمَا سَوْءَٰتِهِمَآ ۗ إِنَّهُۥ يَرَىٰكُمْ هُوَ وَقَبِيلُهُۥ مِنْ حَيْثُ لَا تَرَوْنَهُمْ ۗ
إِنَّا جَعَلْنَا ٱلشَّيَٰطِينَ أَوْلِيَآءَ لِلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿٢٧﴾ وَإِذَا فَعَلُوا۟
فَٰحِشَةً قَالُوا۟ وَجَدْنَا عَلَيْهَآ ءَابَآءَنَا وَٱللَّهُ أَمَرَنَا بِهَا ۗ قُلْ إِنَّ ٱللَّهَ
لَا يَأْمُرُ بِٱلْفَحْشَآءِ ۖ أَتَقُولُونَ عَلَى ٱللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴿٢٨﴾ قُلْ
أَمَرَ رَبِّى بِٱلْقِسْطِ ۖ وَأَقِيمُوا۟ وُجُوهَكُمْ عِندَ كُلِّ مَسْجِدٍ
وَٱدْعُوهُ مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ ۚ كَمَا بَدَأَكُمْ تَعُودُونَ ﴿٢٩﴾ فَرِيقًا
هَدَىٰ وَفَرِيقًا حَقَّ عَلَيْهِمُ ٱلضَّلَٰلَةُ ۚ إِنَّهُمُ ٱتَّخَذُوا۟ ٱلشَّيَٰطِينَ
أَوْلِيَآءَ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَيَحْسَبُونَ أَنَّهُم مُّهْتَدُونَ ﴿٣٠﴾

۞ يَٰبَنِيٓ ءَادَمَ خُذُوا۟ زِينَتَكُمْ عِندَ كُلِّ مَسْجِدٍ وَكُلُوا۟ وَٱشْرَبُوا۟
وَلَا تُسْرِفُوٓا۟ ۚ إِنَّهُۥ لَا يُحِبُّ ٱلْمُسْرِفِينَ ﴿٣١﴾ قُلْ مَنْ حَرَّمَ زِينَةَ ٱللَّهِ
ٱلَّتِىٓ أَخْرَجَ لِعِبَادِهِۦ وَٱلطَّيِّبَٰتِ مِنَ ٱلرِّزْقِ ۚ قُلْ هِىَ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا۟
فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا خَالِصَةً يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ ۗ كَذَٰلِكَ نُفَصِّلُ ٱلْءَايَٰتِ
لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ﴿٣٢﴾ قُلْ إِنَّمَا حَرَّمَ رَبِّىَ ٱلْفَوَٰحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا
بَطَنَ وَٱلْإِثْمَ وَٱلْبَغْىَ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ وَأَن تُشْرِكُوا۟ بِٱللَّهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِۦ
سُلْطَٰنًا وَأَن تَقُولُوا۟ عَلَى ٱللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴿٣٣﴾ وَلِكُلِّ أُمَّةٍ أَجَلٌ ۖ
فَإِذَا جَآءَ أَجَلُهُمْ لَا يَسْتَأْخِرُونَ سَاعَةً ۖ وَلَا يَسْتَقْدِمُونَ ﴿٣٤﴾
يَٰبَنِيٓ ءَادَمَ إِمَّا يَأْتِيَنَّكُمْ رُسُلٌ مِّنكُمْ يَقُصُّونَ عَلَيْكُمْ ءَايَٰتِى ۙ فَمَنِ
ٱتَّقَىٰ وَأَصْلَحَ فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿٣٥﴾ وَٱلَّذِينَ
كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا وَٱسْتَكْبَرُوا۟ عَنْهَآ أُو۟لَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِ ۖ هُمْ
فِيهَا خَٰلِدُونَ ﴿٣٦﴾ فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ ٱفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا أَوْ كَذَّبَ
بِـَٔايَٰتِهِۦ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ يَنَالُهُمْ نَصِيبُهُم مِّنَ ٱلْكِتَٰبِ ۖ حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَتْهُمْ
رُسُلُنَا يَتَوَفَّوْنَهُمْ قَالُوٓا۟ أَيْنَ مَا كُنتُمْ تَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ ۖ
قَالُوا۟ ضَلُّوا۟ عَنَّا وَشَهِدُوا۟ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ أَنَّهُمْ كَانُوا۟ كَٰفِرِينَ ﴿٣٧﴾

قَالَ ٱدْخُلُوا۟ فِىٓ أُمَمٍ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِكُم مِّنَ ٱلْجِنِّ وَٱلْإِنسِ
فِى ٱلنَّارِ ۖ كُلَّمَا دَخَلَتْ أُمَّةٌ لَّعَنَتْ أُخْتَهَا ۖ حَتَّىٰٓ إِذَا ٱدَّارَكُوا۟ فِيهَا
جَمِيعًا قَالَتْ أُخْرَىٰهُمْ لِأُولَىٰهُمْ رَبَّنَا هَٰٓؤُلَآءِ أَضَلُّونَا فَـَٔاتِهِمْ
عَذَابًا ضِعْفًا مِّنَ ٱلنَّارِ ۖ قَالَ لِكُلٍّ ضِعْفٌ وَلَٰكِن لَّا تَعْلَمُونَ ﴿٣٨﴾
وَقَالَتْ أُولَىٰهُمْ لِأُخْرَىٰهُمْ فَمَا كَانَ لَكُمْ عَلَيْنَا مِن فَضْلٍ
فَذُوقُوا۟ ٱلْعَذَابَ بِمَا كُنتُمْ تَكْسِبُونَ ﴿٣٩﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟
بِـَٔايَٰتِنَا وَٱسْتَكْبَرُوا۟ عَنْهَا لَا تُفَتَّحُ لَهُمْ أَبْوَٰبُ ٱلسَّمَآءِ وَلَا يَدْخُلُونَ
ٱلْجَنَّةَ حَتَّىٰ يَلِجَ ٱلْجَمَلُ فِى سَمِّ ٱلْخِيَاطِ ۚ وَكَذَٰلِكَ نَجْزِى
ٱلْمُجْرِمِينَ ﴿٤٠﴾ لَهُم مِّن جَهَنَّمَ مِهَادٌ وَمِن فَوْقِهِمْ غَوَاشٍ ۚ
وَكَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٤١﴾ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟
ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَا نُكَلِّفُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَآ أُو۟لَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ
ٱلْجَنَّةِ ۖ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ ﴿٤٢﴾ وَنَزَعْنَا مَا فِى صُدُورِهِم مِّنْ غِلٍّ
تَجْرِى مِن تَحْتِهِمُ ٱلْأَنْهَٰرُ ۖ وَقَالُوا۟ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى هَدَىٰنَا لِهَٰذَا
وَمَا كُنَّا لِنَهْتَدِىَ لَوْلَآ أَنْ هَدَىٰنَا ٱللَّهُ ۖ لَقَدْ جَآءَتْ رُسُلُ رَبِّنَا بِٱلْحَقِّ ۖ
وَنُودُوٓا۟ أَن تِلْكُمُ ٱلْجَنَّةُ أُورِثْتُمُوهَا بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٤٣﴾

وَنَادَىٰٓ أَصۡحَٰبُ ٱلۡجَنَّةِ أَصۡحَٰبَ ٱلنَّارِ أَن قَدۡ وَجَدۡنَا مَا وَعَدَنَا رَبُّنَا حَقّٗا
فَهَلۡ وَجَدتُّم مَّا وَعَدَ رَبُّكُمۡ حَقّٗاۖ قَالُواْ نَعَمۡۚ فَأَذَّنَ مُؤَذِّنُۢ بَيۡنَهُمۡ أَن
لَّعۡنَةُ ٱللَّهِ عَلَى ٱلظَّٰلِمِينَ ٤٤ ٱلَّذِينَ يَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ وَيَبۡغُونَهَا
عِوَجٗا وَهُم بِٱلۡأٓخِرَةِ كَٰفِرُونَ ٤٥ وَبَيۡنَهُمَا حِجَابٞۚ وَعَلَى ٱلۡأَعۡرَافِ
رِجَالٞ يَعۡرِفُونَ كُلَّۢا بِسِيمَىٰهُمۡۚ وَنَادَوۡاْ أَصۡحَٰبَ ٱلۡجَنَّةِ أَن سَلَٰمٌ عَلَيۡكُمۡۚ
لَمۡ يَدۡخُلُوهَا وَهُمۡ يَطۡمَعُونَ ٤٦ ۞ وَإِذَا صُرِفَتۡ أَبۡصَٰرُهُمۡ تِلۡقَآءَ
أَصۡحَٰبِ ٱلنَّارِ قَالُواْ رَبَّنَا لَا تَجۡعَلۡنَا مَعَ ٱلۡقَوۡمِ ٱلظَّٰلِمِينَ ٤٧ وَنَادَىٰٓ أَصۡحَٰبُ
ٱلۡأَعۡرَافِ رِجَالٗا يَعۡرِفُونَهُم بِسِيمَىٰهُمۡ قَالُواْ مَآ أَغۡنَىٰ عَنكُمۡ جَمۡعُكُمۡ
وَمَا كُنتُمۡ تَسۡتَكۡبِرُونَ ٤٨ أَهَٰٓؤُلَآءِ ٱلَّذِينَ أَقۡسَمۡتُمۡ لَا يَنَالُهُمُ
ٱللَّهُ بِرَحۡمَةٍۚ ٱدۡخُلُواْ ٱلۡجَنَّةَ لَا خَوۡفٌ عَلَيۡكُمۡ وَلَآ أَنتُمۡ تَحۡزَنُونَ
٤٩ وَنَادَىٰٓ أَصۡحَٰبُ ٱلنَّارِ أَصۡحَٰبَ ٱلۡجَنَّةِ أَنۡ أَفِيضُواْ عَلَيۡنَا
مِنَ ٱلۡمَآءِ أَوۡ مِمَّا رَزَقَكُمُ ٱللَّهُۚ قَالُوٓاْ إِنَّ ٱللَّهَ حَرَّمَهُمَا عَلَى
ٱلۡكَٰفِرِينَ ٥٠ ٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُواْ دِينَهُمۡ لَهۡوٗا وَلَعِبٗا
وَغَرَّتۡهُمُ ٱلۡحَيَوٰةُ ٱلدُّنۡيَاۚ فَٱلۡيَوۡمَ نَنسَىٰهُمۡ كَمَا نَسُواْ
لِقَآءَ يَوۡمِهِمۡ هَٰذَا وَمَا كَانُواْ بِـَٔايَٰتِنَا يَجۡحَدُونَ ٥١

وَلَقَدْ جِئْنَٰهُم بِكِتَٰبٍ فَصَّلْنَٰهُ عَلَىٰ عِلْمٍ هُدًى وَرَحْمَةً لِّقَوْمٍ
يُؤْمِنُونَ ﴿٥٢﴾ هَلْ يَنظُرُونَ إِلَّا تَأْوِيلَهُۥ ۚ يَوْمَ يَأْتِى تَأْوِيلُهُۥ يَقُولُ
ٱلَّذِينَ نَسُوهُ مِن قَبْلُ قَدْ جَآءَتْ رُسُلُ رَبِّنَا بِٱلْحَقِّ فَهَل لَّنَا
مِن شُفَعَآءَ فَيَشْفَعُوا۟ لَنَآ أَوْ نُرَدُّ فَنَعْمَلَ غَيْرَ ٱلَّذِى كُنَّا نَعْمَلُ ۚ
قَدْ خَسِرُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ وَضَلَّ عَنْهُم مَّا كَانُوا۟ يَفْتَرُونَ ﴿٥٣﴾
إِنَّ رَبَّكُمُ ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ فِى سِتَّةِ
أَيَّامٍ ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ يُغْشِى ٱلَّيْلَ ٱلنَّهَارَ يَطْلُبُهُۥ حَثِيثًا
وَٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ وَٱلنُّجُومَ مُسَخَّرَٰتٍۭ بِأَمْرِهِۦٓ ۗ أَلَا لَهُ ٱلْخَلْقُ
وَٱلْأَمْرُ ۗ تَبَارَكَ ٱللَّهُ رَبُّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٥٤﴾ ٱدْعُوا۟ رَبَّكُمْ تَضَرُّعًا
وَخُفْيَةً ۚ إِنَّهُۥ لَا يُحِبُّ ٱلْمُعْتَدِينَ ﴿٥٥﴾ وَلَا تُفْسِدُوا۟ فِى
ٱلْأَرْضِ بَعْدَ إِصْلَٰحِهَا وَٱدْعُوهُ خَوْفًا وَطَمَعًا ۚ إِنَّ رَحْمَتَ
ٱللَّهِ قَرِيبٌ مِّنَ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿٥٦﴾ وَهُوَ ٱلَّذِى يُرْسِلُ
ٱلرِّيَٰحَ بُشْرًۢا بَيْنَ يَدَىْ رَحْمَتِهِۦ ۖ حَتَّىٰٓ إِذَآ أَقَلَّتْ سَحَابًا
ثِقَالًا سُقْنَٰهُ لِبَلَدٍ مَّيِّتٍ فَأَنزَلْنَا بِهِ ٱلْمَآءَ فَأَخْرَجْنَا بِهِۦ مِن كُلِّ
ٱلثَّمَرَٰتِ ۚ كَذَٰلِكَ نُخْرِجُ ٱلْمَوْتَىٰ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ ﴿٥٧﴾

وَٱلْبَلَدُ ٱلطَّيِّبُ يَخْرُجُ نَبَاتُهُۥ بِإِذْنِ رَبِّهِۦ ۖ وَٱلَّذِى خَبُثَ لَا يَخْرُجُ
إِلَّا نَكِدًا ۚ كَذَٰلِكَ نُصَرِّفُ ٱلْءَايَٰتِ لِقَوْمٍ يَشْكُرُونَ ﴿٥٨﴾
لَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِۦ فَقَالَ يَٰقَوْمِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ مَا لَكُم
مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥ ۖ إِنِّىٓ أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ ﴿٥٩﴾
قَالَ ٱلْمَلَأُ مِن قَوْمِهِۦٓ إِنَّا لَنَرَىٰكَ فِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴿٦٠﴾ قَالَ
يَٰقَوْمِ لَيْسَ بِى ضَلَٰلَةٌ وَلَٰكِنِّى رَسُولٌ مِّن رَّبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ
﴿٦١﴾ أُبَلِّغُكُمْ رِسَٰلَٰتِ رَبِّى وَأَنصَحُ لَكُمْ وَأَعْلَمُ مِنَ ٱللَّهِ
مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴿٦٢﴾ أَوَعَجِبْتُمْ أَن جَآءَكُمْ ذِكْرٌ مِّن رَّبِّكُمْ عَلَىٰ
رَجُلٍ مِّنكُمْ لِيُنذِرَكُمْ وَلِتَتَّقُوا۟ وَلَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ﴿٦٣﴾ فَكَذَّبُوهُ
فَأَنجَيْنَٰهُ وَٱلَّذِينَ مَعَهُۥ فِى ٱلْفُلْكِ وَأَغْرَقْنَا ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟
بِـَٔايَٰتِنَا ۚ إِنَّهُمْ كَانُوا۟ قَوْمًا عَمِينَ ﴿٦٤﴾ ۞ وَإِلَىٰ عَادٍ أَخَاهُمْ
هُودًا ۚ قَالَ يَٰقَوْمِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥ ۚ أَفَلَا تَتَّقُونَ
﴿٦٥﴾ قَالَ ٱلْمَلَأُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِن قَوْمِهِۦٓ إِنَّا لَنَرَىٰكَ فِى
سَفَاهَةٍ وَإِنَّا لَنَظُنُّكَ مِنَ ٱلْكَٰذِبِينَ ﴿٦٦﴾ قَالَ يَٰقَوْمِ
لَيْسَ بِى سَفَاهَةٌ وَلَٰكِنِّى رَسُولٌ مِّن رَّبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٦٧﴾

أُبَلِّغُكُمْ رِسَٰلَٰتِ رَبِّى وَأَنَا۠ لَكُمْ نَاصِحٌ أَمِينٌ ﴿٦٨﴾ أَوَعَجِبْتُمْ
أَن جَآءَكُمْ ذِكْرٌ مِّن رَّبِّكُمْ عَلَىٰ رَجُلٍ مِّنكُمْ لِيُنذِرَكُمْ ۚ
وَٱذْكُرُوٓا۟ إِذْ جَعَلَكُمْ خُلَفَآءَ مِنۢ بَعْدِ قَوْمِ نُوحٍ وَزَادَكُمْ
فِى ٱلْخَلْقِ بَصْۜطَةً ۖ فَٱذْكُرُوٓا۟ ءَالَآءَ ٱللَّهِ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ
﴿٦٩﴾ قَالُوٓا۟ أَجِئْتَنَا لِنَعْبُدَ ٱللَّهَ وَحْدَهُۥ وَنَذَرَ مَا كَانَ
يَعْبُدُ ءَابَآؤُنَا ۖ فَأْتِنَا بِمَا تَعِدُنَآ إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ
﴿٧٠﴾ قَالَ قَدْ وَقَعَ عَلَيْكُم مِّن رَّبِّكُمْ رِجْسٌ وَغَضَبٌ ۖ
أَتُجَٰدِلُونَنِى فِىٓ أَسْمَآءٍ سَمَّيْتُمُوهَآ أَنتُمْ وَءَابَآؤُكُم
مَّا نَزَّلَ ٱللَّهُ بِهَا مِن سُلْطَٰنٍ ۚ فَٱنتَظِرُوٓا۟ إِنِّى مَعَكُم مِّنَ
ٱلْمُنتَظِرِينَ ﴿٧١﴾ فَأَنجَيْنَٰهُ وَٱلَّذِينَ مَعَهُۥ بِرَحْمَةٍ مِّنَّا
وَقَطَعْنَا دَابِرَ ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا ۖ وَمَا كَانُوا۟ مُؤْمِنِينَ
﴿٧٢﴾ وَإِلَىٰ ثَمُودَ أَخَاهُمْ صَٰلِحًا ۚ قَالَ يَٰقَوْمِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ
مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥ ۖ قَدْ جَآءَتْكُم بَيِّنَةٌ مِّن
رَّبِّكُمْ ۖ هَٰذِهِۦ نَاقَةُ ٱللَّهِ لَكُمْ ءَايَةً ۖ فَذَرُوهَا تَأْكُلْ
فِىٓ أَرْضِ ٱللَّهِ ۖ وَلَا تَمَسُّوهَا بِسُوٓءٍ فَيَأْخُذَكُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٧٣﴾

وَٱذْكُرُوٓا۟ إِذْ جَعَلَكُمْ خُلَفَآءَ مِنۢ بَعْدِ عَادٍ وَبَوَّأَكُمْ
فِى ٱلْأَرْضِ تَتَّخِذُونَ مِن سُهُولِهَا قُصُورًا وَتَنْحِتُونَ
ٱلْجِبَالَ بُيُوتًا ۖ فَٱذْكُرُوٓا۟ ءَالَآءَ ٱللَّهِ وَلَا تَعْثَوْا۟ فِى ٱلْأَرْضِ
مُفْسِدِينَ ﴿٧٤﴾ قَالَ ٱلْمَلَأُ ٱلَّذِينَ ٱسْتَكْبَرُوا۟ مِن
قَوْمِهِۦ لِلَّذِينَ ٱسْتُضْعِفُوا۟ لِمَنْ ءَامَنَ مِنْهُمْ أَتَعْلَمُونَ
أَنَّ صَٰلِحًا مُّرْسَلٌ مِّن رَّبِّهِۦ ۚ قَالُوٓا۟ إِنَّا بِمَآ أُرْسِلَ بِهِۦ
مُؤْمِنُونَ ﴿٧٥﴾ قَالَ ٱلَّذِينَ ٱسْتَكْبَرُوٓا۟ إِنَّا بِٱلَّذِىٓ
ءَامَنتُم بِهِۦ كَٰفِرُونَ ﴿٧٦﴾ فَعَقَرُوا۟ ٱلنَّاقَةَ وَعَتَوْا۟ عَنْ
أَمْرِ رَبِّهِمْ وَقَالُوا۟ يَٰصَٰلِحُ ٱئْتِنَا بِمَا تَعِدُنَآ إِن كُنتَ مِنَ
ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿٧٧﴾ فَأَخَذَتْهُمُ ٱلرَّجْفَةُ فَأَصْبَحُوا۟ فِى دَارِهِمْ
جَٰثِمِينَ ﴿٧٨﴾ فَتَوَلَّىٰ عَنْهُمْ وَقَالَ يَٰقَوْمِ لَقَدْ أَبْلَغْتُكُمْ
رِسَالَةَ رَبِّى وَنَصَحْتُ لَكُمْ وَلَٰكِن لَّا تُحِبُّونَ ٱلنَّٰصِحِينَ
﴿٧٩﴾ وَلُوطًا إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِۦٓ أَتَأْتُونَ ٱلْفَٰحِشَةَ مَا سَبَقَكُم
بِهَا مِنْ أَحَدٍ مِّنَ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٨٠﴾ إِنَّكُمْ لَتَأْتُونَ ٱلرِّجَالَ
شَهْوَةً مِّن دُونِ ٱلنِّسَآءِ ۚ بَلْ أَنتُمْ قَوْمٌ مُّسْرِفُونَ ﴿٨١﴾

وَمَا كَانَ جَوَابَ قَوْمِهِۦٓ إِلَّآ أَن قَالُوٓا۟ أَخْرِجُوهُم مِّن
قَرْيَتِكُمْ ۖ إِنَّهُمْ أُنَاسٌ يَتَطَهَّرُونَ ﴿٨٢﴾ فَأَنجَيْنَٰهُ وَأَهْلَهُۥٓ
إِلَّا ٱمْرَأَتَهُۥ كَانَتْ مِنَ ٱلْغَٰبِرِينَ ﴿٨٣﴾ وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِم
مَّطَرًا ۖ فَٱنظُرْ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلْمُجْرِمِينَ ﴿٨٤﴾
وَإِلَىٰ مَدْيَنَ أَخَاهُمْ شُعَيْبًا ۚ قَالَ يَٰقَوْمِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ
مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥ ۖ قَدْ جَآءَتْكُم بَيِّنَةٌ مِّن
رَّبِّكُمْ ۖ فَأَوْفُوا۟ ٱلْكَيْلَ وَٱلْمِيزَانَ وَلَا تَبْخَسُوا۟
ٱلنَّاسَ أَشْيَآءَهُمْ وَلَا تُفْسِدُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ بَعْدَ
إِصْلَٰحِهَا ۚ ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ
﴿٨٥﴾ وَلَا تَقْعُدُوا۟ بِكُلِّ صِرَٰطٍ تُوعِدُونَ وَتَصُدُّونَ
عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ مَنْ ءَامَنَ بِهِۦ وَتَبْغُونَهَا عِوَجًا ۚ
وَٱذْكُرُوٓا۟ إِذْ كُنتُمْ قَلِيلًا فَكَثَّرَكُمْ ۖ وَٱنظُرُوا۟
كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلْمُفْسِدِينَ ﴿٨٦﴾ وَإِن كَانَ طَآئِفَةٌ
مِّنكُمْ ءَامَنُوا۟ بِٱلَّذِىٓ أُرْسِلْتُ بِهِۦ وَطَآئِفَةٌ لَّمْ يُؤْمِنُوا۟
فَٱصْبِرُوا۟ حَتَّىٰ يَحْكُمَ ٱللَّهُ بَيْنَنَا ۚ وَهُوَ خَيْرُ ٱلْحَٰكِمِينَ ﴿٨٧﴾

بين يدي التفسير

الرّسول يُنذر بالقرآن الكريم الكافرين ويُبشّر المؤمنين وللكافرين عذاب أليم وللمؤمنين ثواب عظيم في الأولى والآخرة

الآيات (١ - ١٠)

سورة الأعراف المكّيّة واحدةٌ من تسعٍ وعشرين سورةً ابتدأت بالحروف المقطّعة . ومن العلماء من قال في تفسيرها : الله أعلم بمراده بذلك ، ومنهم من اجتهد في تفسيرها ومن ألطف الاجتهادات الرّأى الّذي يذهب إلى كون هذه الحروف امتداداً للتّحدّي بالقرآن الكريم وتنبيهاً إلى القرآن الكريم المعجز الّذي تتألّف كلماته من هذه الحروف ذاتها . وعلى عادة السّور الّتى تبدأ بهذه الحروف في حديثها غالباً عن القرآن الكريم تتحدّث الآيتان الكريمتان التّاليتان عن القرآن الكريم الكتاب الموحي به من ربّ العالمين فلا يكن في صدر المصطفى ﷺ ضيقٌ شديد لتكذيب الكافرين حينما ينذرهم المصطفى ﷺ بالقرآن الكريم . والقرآن الكريم وراء ذلك ذكرى للمؤمنين ، فعلى النّاس أن يتّبعوا القرآن الكريم المنزل إليهم من ربّهم وعليهم ألاّ يتّبعوا من دونه جلّ وعلا من أولياء يأمرونهم بالإشراك مع الله تعالى غيره . فعلى النّاس أن يتذكّروا ويتّعظوا أسوةً بالمؤمنين . وبقصد حمل الكافرين على العودة إلى الله تعالى يتحوّل السّياق إلى الإشارة إلى القرى الكثيرة الظّالمة الّتى أهلكها الله تعالى فأخذها أخذ عزيزٍ مقتدر في أحد وقتي الغفلة والرّاحة في اللّيل أو وقت القائلة . ويصحّ أن يفهم جراءة القوم على الله تعالى فهم تجاوزوا المجاهرة بالمنكر ليلاً إلى المجاهرة به في وضح النّهار . وما كان قول هؤلاء الظّالمين حينما جاءهم عذاب الله تعالى إلاّ أن اعترفوا بذنوبهم وباستحقاقهم للعذاب . ويتحوّل السّياق إلى يوم القيامة لأنّ الآخرة لا تنفصل عن الأولى في يقين المؤمن فيقرّر أنّ الله سبحانه وتعالى سوف يسأل يوم القيامة الأمم على سبيل التّبكيت ويسأل المرسلين الّذين قد أحاط الله تعالى بهم علماًولكن بقصد تقريع المكذّبين . ولا يستطيع الكافرون أن يكذبوا لأنّ الله سبحانه وتعالى سوف يقصّ على كلّ واحدٍ ما عمل في حياته الدّنيا فلا يخفى عليه جلّ وعلا شيءٌ في الأرض ولا في السّماء . ويوم القيامة يحاسب ويجازي كلّ واحدٍ على عمله فالوزن يومئذٍ للأعمال العدل فمن ثقلت وكثرت حسناته فأولئك هم المفلحون ومن ثقلت وكثرت سيّئاته فأولئك هم الخاسرون الّذين خسروا أنفسهم بما كانوا يكذّبون بآيات الله تعالى ويظلمونها . ويعود السّياق إلى دنيا الواقع فينبّه

النّاس إلى فضل الله تعالى عليهم بتمكينهم في الأرض وتهيئتها لمعاشهم وإلى ما يجب عليهم من شكرٍ لله تعالى بعبادته جلّ وعلا وحده لا شريك له .

عداوة إبليس لآدم عليه السّلام وذرّيته أزليّة

الآيات (١١ – ٢٥)

يتحدّث هذا القسم عن خلق آدم عليه السّلام وزوجه وعداوة الشّيطان الرّجيم وبعض الدّروس المستفادة . إنّ الآية الكريمة الأولى تقرّر أنّ الله سبحانه وتعالى خلق آدم عليه السّلام وصوّره ثمّ قال للملائكة اسجدوا لآدم فسجدوا إلاّ إبليس اللّعين لم يكن من السّاجدين . ويتحوّل السّياق إلى سؤال الله تعالى اللّعين عن السّبب الّذي من أجله امتنع عن السّجود ، ولا يخفى عليه جلّ وعلا ما أخفى اللّعين . وقد كان عذر اللّعين قبيحاً كفعله فقد خلقه الله تعالى من نار وخلق آدم عليه السّلام من طين ، والنّار في نظر اللّعين أسمى . وتجاه عصيانه أمره الله تعالى أن يهبط من المنزلة الّتي هو في الملكوت الأعلى فما ينبغي للّعين أن يتكبّر هنالك وعليه أن يخرج فإنّه من الصّاغرين الذّليلين . ويطلب اللّعين منه جلّ وعلا أن يمهله إلى يوم البعث والنّفخة الثّانية فأمهله الله تعالى إلى النّفخة الأولى لأنّ النّفخة الثّانية معناها الخلود . ويعتبر اللّعين أمر الله تعالى له بالسجود لآدم إغواءً له فيهدّد بإغواء آدم عليه السّلام وذرّيّته بأن يأتيهم ﴿ من بين أيديهم ومن خلفهم وعن أيمانهم وعن شمائلهم ولا تجد أكثرهم شاكرين ﴾ . ويأمر الله تعالى اللّعين بأن يخرج من الجنّة معيباً مطروداً ويقسم أنّ من تبع اللّعين وذرّيّته من بني آدم ليملأنّ جلّ وعلا جهنّم منهم أجمعين . ويأمر الله تعالى آدم عليه السّلام بأن يسكن هو وزوجه الجنّة وأن يأكلا رغداً من حيث شاءا وينهاهما عن مجرّد الاقتراب من شجرةٍ بعينها وإلاّ كانا من الظّالمين . ووسوس الشّيطان الرّجيم لهما بالأكل من الشّجرة ليبدي لهما ما ووري عنهما من سوآتهما وعوراتهما وقال مانهاكما ربّكما جلّ وعلا عن هذه الشّجرة إلاّ لئلاّ تكونا ملكين أو تكونا من الخالدين . ولّما كان ربّ العزّة قد حذّر آدم وحوّاء من الشّيطان الرّجيم ونهاهما عن مجرّد الاقتراب من الشّجرة فهما متحرّجان من معصية الله تعالى فإنّ الرّجيم أقسم لهما بالله تعالى أنّه لهما لمن النّاصحين بينما هو من الكاذبين المضلّين . فلمّا ذاق آدم وحوّاء من الشّجرة

بدت لهما على الفور عوراتهما وأخذا يلزقان عليهما من ورق الجنّة وناداهما ربّهما جلّ وعلا ألم أنهكما عن تلكما الشّجرة وعن مجرّد الاقتراب منها ، ألم أقل لكما إنّ الشّيطان لكما عدوٌّ مبين . واعترف آدم وحوّاء بظلمهما نفسيهما وسألا الله تعالى المغفرة والرّحمة وهذه هي الكلمات الّتى تلقّاها آدم من ربّه جلّ وعلا ، وأمرهما جلّ وعلا بأن يهبطا وذرّيّتهما من الجّنة إلى الأرض الّتي فيها مستقرٌّ لهم ومتاعٌ إلى حين وأخبرهما أنّ بعض الذّرّيّة سيكون عدوّاً للبعض الآخر إضافةً إلى عداوة الشّيطان ، وأنهم في الأرض يحيون ويموتون ومنها يخرجون يوم القيامة من أجل الحساب ، فالثّواب أو العقاب .

توجيهات قرآنيّة لبني آدم

الآيات (٢٦ – ٣٦)

ما أكثر الدّروس الّتي ينبغي أن يستفيدها بنو آدم ممّا جرى لأبيهم ولأمّهم حوّاء عليهماالسّلام قبل أن يهبطا إلى الأرض . وإنّ هذا القسم من السّورة يتحدّث عن بعض هذه الدّروس . إنّ الآية الكريمة الأولى تخاطب بني آدم وتخبرهم بأنّ الله سبحانه وتعالى قد أنزل عليهم لباساً يواري سوءاتهم وريشاً فليحذروا أن يخدعهم اللّعين كما فعل بأبويهم . ويكون النّوعان الحسّيّان من اللّباس توطئةً للباس التّقوى المعنويّ الأفضل . إنّ كلاً من اللّباس والرّياش من آيات الله تعالى لعلّ النّاس يتذكّرون ويتّعظون . وتصرّح الآية الكريمة التّالية بهذا الدّرس فتخاطب بني آدم وتنهاهم عن أن يفتنهم الشّيطان الرّجيم ويخرجهم من دائرة رضوان الله تعالى كما فتن أبويهم وأخرجهما من الجنّة ونزع عنهما لباسهما ليريهما سوءاتهما . وتحذّر الآية الكريمة من اللّعين الّذي يرانا هو وذرّيّته بينما نحن لا نراهم وتقرّر أنّ الشّياطين أولياء للّذين لا يؤمنون . والعجيب في أمر كفّار مكّة الّذين فتنهم الشّيطان الرّجيم فطافوا بالبيت عراةً أنّهم حينما يُنْهَون عن ارتكاب فاحشة يقولون إنّا وجدنا آباءنا عليها وإنّ الله تعالى أمرنا بها . ويردّ على القوم فوراً بأنّ الله تعالى لا يأمر بالفحشاء وبأنّهم يقولون مالا يعلمون . ويوضع البديل الصّحيح فالله أمر بالعدل وبأن نقيم وجوهنا عند كلّ مسجدٍ في أثناء الصّلوات متّجهين إلى الله تعالى وأن ندعوه مخلصين له جلّ وعلا الدّين . وينبّهنا السّياق إلى البعث بعد الموت ، وإلى أنّ النّاس يوم القيامة فريقان ، فريقٌ في الجنّة وفريقٌ في

جهنّم لأنّ الأخيرين اتّخذوا الشّياطين أولياء ونصراء من دون الله تعالى وهم يظنّون أنّهم مهتدون . وبما أنّ الجوّ جوّ سجود فالملائكة تؤمر بأن تسجد لآدم سجود تحيّة وتكرمة ، والنّاس يؤمرون بأن يقيموا وجوههم عند كلّ مسجد ، فقد كان ثمّة عنايةٌ بالمسجد . إنّ ربّ العزّة ينادي بني آدم ويأمرهم بأن يأخذوا زينتهم عند كلّ مسجد وأن يأكلوا ويشربوا وألاّ يسرفوا لأنّ الله تعالى لا يحبّ المسرفين . ولّما كان ثمّة نهيٌ عن الإسراف كان ثمّة نهيٌ كذلك عن تحريم ما أحلّ الله تعالى ، ففي أسلوب الاستفهام الإنكاري يجيء القول : ﴿ قل من حرّم زينة الله الّتى أخرج لعباده والطّيّبات من الرّزق ﴾ الجواب لا أحد . وهنا يكون تبيينٌ للأهليّة وأحقّيّة هذه الزّينة . قل يا محمّد هي للّذين آمنوا على جهة الاستحقاق في هذه الحياة الدّنيا أمّا في الآخرة فالزّينة خالصةٌ للمؤمنين أصحاب الجنّة . إنّ في مثل هذه الطّريقة يفصّل الله تعالى الآيات لقومٍ يعلمون . ويضع السّياق أمام بني آدم ويعيّن لهم كلّيّات المحرّمات . فالله سبحانه وتعالى حرّم الفواحش الظّاهرة والباطنة والإثم والعدوان والبغي بغير حقّ والشّرك وأن نحلّل ونحرّم بأهوائنا . وبقصد تحذير كفّار مكّة من مغبّة الإشراك مع الله تعالى غيره والانصراف عن التّوحيد يقرّر السّياق أنّ لكلّ أمّةٍ ظالمةٍ وقتاً معيّناً تعذّب فيه ولايتأخرّ ذلك الوقت ولا يتقدّم فعلى كفّار مكّة أن يأخذوا حذرهم وأن يتّبعوا الرّسول العظيم وما يقصّه عليهم من قرآنٍ كريم فمن اتّقى المعاصي وأصلح عمله فلا خوفٌ عليهم فيما يستقبلون من أمور الآخرة ولا هم يحزنون على ما يتركون من أمور الدّنيا . أمّا الّذين كذّبوا وكفروا واستكبروا فأولئك أصحاب النّار هم فيها خالدون .

عذاب الظّالمين المكذّبين
وثواب المؤمنين الّذين يعملون الصّالحات
الآيات (٣٧-٤٣)

يستمرّ الحديث في هذا القسم عن الظّالمين فيقرّر السّياق أنّه لا أحد أظلم ممّن افترى على الله كذباً بنسبة الشّريك والولد والصّاحبة له جلّ وعلا أو كذّب بآياته تعالى . إنّ أولئك ينالهم نصيبهم الّذي كتبه الله تعالى لهم في هذه الحياة الدّنيا حتّى إذا جاءتهم رسل الله تعالى من الملائكة يتوفّونهم قالوا أين الّذين كنتم تدعون من دون الله تعالى قالوا غابوا عنّا وشهدوا على أنفسهم أنّهم كانوا كافرين يستحقّون العذاب . ويوم القيامة يقال لهم

ادخلوا في جملة أمم قد خلت من قبلكم ومضت من الإنس والجنّ وتبوّءوا مقاعدكم من النّار . وكلّما دخلت أمّة ضالّة لعنت أختها السّابقة عليها الّتي أضلّتها حتّى إذا اجتمعوا فيها أجمعين قالت أخراهم دخولاً في النّار وضلالاً ربّنا هؤلاء أضلّونا عن صراطك المستقيم فآتهم عذاباً ضعف عذاب الآخرين . قال جلّ وعلا لكلٍّ منكم عذابٌ ضعف قبل أن تطلبوا لهم ذلك ولكن لا تعلمون . وقالت السّابقة للاّحقة فما كان لكم علينا من فضل وما اتّعظتم بنا فذوقوا العذاب بما كنتم تكسبون . وينذر السّياق الكافرين المكذّبين المستكبرين الّذين يطمعون في دخول الجنّة بأنّهم لا تفتح لأرواحهم وأعمالهم الطّيّبة الّتى لا يريدون بها وجه الله تعالى أبواب السّماء ولا يدخلون الجنّة حتّى يدخل الحبل الغليظ الخاصّ بالسّفن في ثقب الإبرة . إنّ الدّخول في الحالين مستحيل وإنّ محاولة المغفّلين في الحالين قائمة . ولهؤلاء الكافرين فراشٌ من جهنّم تحتهم وغطاءٌ من النّار فوقهم فذلك جزاء الظّالمين في كلّ زمانٍ ومكان . وللمؤمنين الّذين يعملون الصّالحات والّذين لا يكلّفهم الله تعالى الاّ وسعهم جنّات النّعيم فهم أصحاب الجنّة الخالدون في نعيمها ، وينزع الله سبحانه وتعالى ما في صدورهم من غلٍّ لإخوانهم المؤمنين وتجرى من تحتهم الأنهار ويقولون الحمد الله تعالى الّذي هدانا لهذا عن طريق الرّسول الكريم والقرآن العظيم وما كنّا لنهتدي لولا أن هدانا الله . لقد جاءت رسل ربّنا جلّ وعلا بالحقّ فآمنّا بهم وصدّقنا ما آتاهم الله من وحي ، وهؤلاء يناديهم الملائكة أن تلكم الجنّة أورثكم الله تعالى الأماكن الّتي كان الكفّار سيملأونها لو أنّهم آمنوا وبما أنّهم كفروا ورثتم أنتم أماكنهم الّتي كانت مخصّصةً لهم في الجنّة بما كنتم تعملون في الدّنيا من صالح الأعمال .

أصحاب الجنّة والنّار والأعراف

الآيات (٤٤ — ٥١)

يسجّل هذا القسم الحوار بين أصحاب الجنّة والنّار والأعراف وهو السّور الفاصل بين الجنّة والنّار كما يسجّل جزاء كلٍّ منهم . إنّ أصحاب الجنّة ينادون أصحاب النّار قائلين لهم على سبيل التّقريع إنّا قد وجدنا ما وعدنا ربّنا من ثوابٍ حقّاً وها نحن أولاء في الجنّة فهل وجدتم ما وعدكم ربكم من عذابٍ حقّاً قالوا نعم وجدنا العذاب حقّاً فأذّن مؤذّنٌ بين الفريقين أن لعنة الله تعالى على الظّالمين الكافرين الّذين يصدّون عن سبيل الله تعالى ويطلبون

الطّريقة غير مستقيمة ويبغون السَّبيل عوجاً وهم بالآخرة كافرون . ويوجد بين الفريقين حجاب هو سور الأعراف المرتفع . وعلى هذا السّور أهل الأعراف وهم قوم استوت حسناتهم وسيّئاتهم ويعرفون كلاً من الفريقين بسيماهم من بياض وجوه المؤمنين وسواد وجوه الكافرين ، ونادوا أصحاب الجنّة أن سلامٌ عليكم وأمنٌ وطمأنينة لم يدخلوها وهم يطمعون . وحينما يكون من أهل الأعراف طمعٌ في دخول الجنّة فذلك معناه أنّ امتداد بصرهم إلى الجنّة وأصحابها بباعثٍ داخلي بعكس إبصارهم تلقاء أصحاب النّار فإنّ ذلك بصارفٍ خارجيّ . وفي مقابل طمعهم في دخول الجنّة هم يسألون الله تعالى ألاّ يجعلهم في النّار مع القوم الظّالمين . ونادى أصحاب الأعراف رجالاً يعرفونهم في النّار بسواد وجوههم وقالوا ما أغنى عنكم وما صرف عنكم النّار جمعكم المال الكثير وعددكم الكبير وسلاحكم الوفير بسبب تكذيبكم واستكباركم . أهؤلاء الفقراء المستضعفون الّذين أقسمتم لا ينالهم الله برحمة ولا يدخلهم الجنّة ؟ لقد قيل لهم ادخلوا الجنّة فلا خوف عليكم فيما تستقبلون ولا أنتم تحزنون على ما تركتم وراءكم في الحياة الدّنيا . وينادى أصحاب النّار أصحاب الجنّة أن أفيضوا علينا من الماء وأعطونا ممّا رزقكم الله تعالى من الطّعام قال المؤمنون إنّ الله تعالى حرّم الماء والطّعام على الكافرين الّذين اتّخذوا دينهم لهواً وسخرية ولعباً وخدعتهم الحياة الدّنيا بزينتها . فاليوم نتركهم كما تركوا العمل ليوم القيامة لأنّهم كانوا بآيات الله تعالى البيّنات كافرين .

الله تعالى الذي له الخلق والأمر والمعاد صرّف آيات الكتاب المفصّل

فاتّبعوه واشكروا له تفوزوا

الآيات (٥٢ - ٥٨)

بعد الحديث عن أصحاب النّار وحوارهم مع أصحاب الجنّة وأصحاب الأعراف يتحوّل الحديث في هذا القسم إلى كفّار مكّة بقصد حملهم على العودة إلى الصّراط المستقيم وهاهي ذي أولى آيات القسم تقرّر أنّ ربّ العزّة قد جاء كفّار مكّة بكتابٍ فصّله جلّ وعلا على علمٍ بما تضمّنه هدىً ورحمةً للمؤمنين . وحينما لا يؤمن كفّار مكّة إلى أن يتوفّاهم الله تعالى هل ينتظرون إلاّ تأويل هذا الكتاب وما يئول إليه . فإذا جاء تأويل الكتاب يوم القيامة وكان البعث والنّشور والحساب والجزاء يقول الّذين نسوا الكتاب العزيز في الحياة الدّنيا قد جاءت رسل ربّنا جلّ وعلا بالحقّ ولكنّا كذّبنا فهل لنا من شفعاء

فيشفعوا لنا في خلاصنا من هذا الكرب أو هل نردّ إلى الحياة الدّنيا فنعمل صالحاً غير الّذي كنّا نعمل سوءاً من قبل . إنّ القوم قد خسروا الأولى والآخرة وغاب عنهم ما كانوا يفترون على الله تعالى من شركاء وأنداد . ويتحوّل الحديث إلى تبيين بعض مظاهر قدرة الله تعالى الّتي ينتهي معها إلى أنّ لله تعالى وحده لا شريك له الخلق والأمر . فالله تعالى الّذي خلق السّماوات والأرض في ستّة أيّام ثمّ استوى على العرش استواءً يليق بجلاله وعظمته ويجعل اللّيل يغطّي النّهار ويطلبه سريعاً ويجعل النّهار يغطّي اللّيل ويطلبه سريعاً وخلق الشّمس والقمر والنّجوم وسخّر كلّ ذلك وذلّله . إنّ الله سبحانه وتعالى الّذي له الخلق كما تبيّن ينبغي أن يكون له الأمر والحكم تبارك الله ربّ العالمين وتعالى وتمجّد . ويأمر السّياق النّاس أن يدعوا ربّهم جلّ وعلا تضرّعاً وسرّاً فإنّه جلّ وعلا لا يحبّ المعتدين في الدّعاء وفي سواه ، وينهاهم عن الإفساد في الأرض خاصّة بعد إصلاحها عن طريق المرسلين على جهة الخصوص ، ويأمرهم كذلك بأن يدعوه جلّ وعلا خوفاً وطمعاً فإنّ رحمة الله تعالى وثواب الدّعاء قريبٌ من المحسنين . ولمّا كان الرسول الكريم رحمةً من الله تعالى مهداة ، وكان القرآن الكريم نعمة من الله تعالى مسداة ، وكان النّصّ على رحمة الله تعالى وثوابها القريب من المحسنين فقد كان ثمّة تحوّلٌ إلى مظهرٍ محسوس من مظاهر رحمة الله تعالى وهو الماء الّذي ينزل من السّماء . إنّ الله سبحانه وتعالى هو الّذي يرسل الرّياح مبشّرات بالمطر قبل نزوله حتّى إذا حملت الرّياح سحاباً ثقالاً بالماء ساقه الله جلّ وعلا لبلدٍ ميّت فأحيا به الأرض بعد موتها وأخرج به من كلّ الثّمرات . وكما أخرج الله بالماء من كلّ الثّمرات يخرج جلّ وعلا الموتى من قبورهم يوم القيامة لعلّنا نتذكّر ونتّعظ .

ولمّا كان النّاس من رحمة الله تعالى المهداة محمّد ﷺ ورحمته المسداة القرآن الكريم فريقين مؤمناً انتفع من القرآن الكريم وكافراً لم ينتفع وكان ثمّة نوعان من التّربة جيّد وردىء فقد تحوّل السّياق إلى الحديث عن هذين النّوعين من البلاد تنبيهاً إلى الفريقين السّابقين من النّاس . إنّ البلد الطّيّب يخرج نباته نامياً بإذن ربّه وإنّ البلد الخبيث والتّربة الرّديئة يخرج كلّ منهما النّبات الّذي يوائمه والّذي ينتظر منه . وكما بيّن الله تعالى ذلك يصرّف الآيات لقومٍ يشكرون .

نوح عليه السّلام وقومه
الآيات (٥٩ — ٦٤)

تحدّثت السّورة الكريمة في أوّلها عن آدم عليه السّلام باعتباره الأب الأوّل للبشر وهاهي ذي تتحدّث عن نوح عليه السّلام الأب الثّاني للبشر وأوّل الرّسل وعن موقف قومه منه ومصيرهم ومصير المكذّبين لكلّ من هودٍ وصالحٍ ولوطٍ وشعيب عليهم صلوات الله وسلامه بقصد أن يأخذ كفّار مكّة ومشركو العرب العظة والعبرة . إنّ السّياق يقرّر أنّ الله سبحانه وتعالى أرسل نوحاً عليه السّلام الى قومه فدعاهم إلى عبادة الله تعالى وحده لا شريك له وخوّفهم أن يمسّهم بسبب تكذيبهم عذاب الله تعالى . وعلى عادة المترفين في كلّ أمّة كذّب الملأ نوحاً عليه السّلام واتّهموه بأنّه عليه السّلام في ضلالٍ مبين ، فنفى عليه السّلام عن نفسه الضّلالة وبيّن أنّه رسول ربّ العالمين ليبلّغهم رسالة ربّه جلّ وعلا وهو النّاصح الأمين الّذي يعلم ما لا يعلمون . ويعجب عليه السّلام منهم أن كذّبوا وعجبوا أن جاءهم من ربّهم نذيرٌ لينذرهم بين يدي عذابٍ شديد وليتّقوا الله تعالى ولعلهم يرحمون . وأصرّ قومه عليه السّلام على تكذيبه فأوحى الله تعالى إليه أن يصنع السّفينة وأن يحمل فيها من كلٍّ زوجين اثنين وأهله حينما يجيء أمر الله تعالى بالطّوفان وغرق من كان خارج السّفينة من الكافرين المكذّبين الّذين أعمى الله تعالى بصائرهم .

هود عليه السّلام وقومه
الآيات (٦٥ — ٧٢)

من الأقوام الّذين جاءوا بعد قوم نوحٍ عليه السّلام والّذين كذّبوا رسول الله تعالى إليهم عاد قوم هودٍ عليه السّلام الّذين يتحوّل السّياق إليهم فيقرّر أنّ الله سبحانه وتعالى كما أرسل نوحاً عليه السّلام إلى قومه أرسل هوداً عليه السّلام إلي عادٍ قومه . وما أكبر وجه الشّبه بين دعوات المرسلين لأنّهم مبعوثون من إلهٍ واحد . إنّ هوداً عليه السّلام يقول لقومه اعبدوا الله تعالى وحده لا شريك له واتّقوه واهجروا الأصنام . ويكون موقف الملأ هنا هو الموقف من نوح عليه السّلام فيقول الّذين كفروا من قومه عليه السّلام إنّا لنجدك في سفاهة

وضلالة وإنّا لنظنّك يا هود من الكاذبين . وينفي عليه السّلام التّهمة عن نفسه ويقرّر أنّه رسول ربّ العالمين يبلّغ الرّسالة وينصح الأمّة وهو الأمين المجتهد في البلاغ . وبهذا يتبيّن الشّروط المهمّة الّتى ينبغي توافرها في الدّاعية وهي : البلاغ والنّصح والأمانة . ويعجب عليه السّلام من قومه أن يكذّبوه ويعجبوا أن جاءهم ذكر من ربّهم جلّ وعلا على رجلٍ منهم لينذرهم ويأمرهم أن يذكروا فضل الله تعالى عليهم إذ جعلهم خلفاء في الأرض من بعد قوم نوحٍ عليه السّلام الّذين أغرقوا وإذ زادهم جلّ وعلا في الخلق بسطة فهم ضخامٌ طوال . إنّ عليهم أن يذكروا نعم الله تعالى ويشكروا لله تعالى عليها لعلّهم يفلحون . ويضرب القوم المثل الأعلى في الحمق فهم ينكرون على هودٍ عليه السّلام دعوته لهم أن يعبدوا الله تعالى وحده لا شريك له وأن يهجروا الأصنام الّتي كان يعبدها آباؤهم فإن أراد هودٌ عليه السّلام الدّليل على صدقه بإنّه رسول ربّ العالمين فينبغي أن يكون ذلك في هيئة العذاب الّذي ينذرهم به هودٌ عليه السّلام ! ويجيبهم هودٌ عليه السّلام بأنّهم قد وقع عليهم من ربّهم جلّ وعلا عذابٌ وغضبٌ فكيف يجادلونه عليه السّلام في أصنام سمّوها هم وآباؤهم ما نزّل الله تعالى بعبادتها من حجّة ولا برهان . إنّ عليهم أن ينتظروا العذاب الّذي يستعجلون فإنّ هوداً عليه السّلام وقومه من المؤمنين ينتظرون أيضاً . وأنجي الله سبحانه وتعالى هوداً ومن معه برحمة من الله تعالى وقطع دابر المكذّبين المستكبرين الكافرين على نحو ما بيّنت سورة الأحقاف على سبيل المثال .

صالح عليه السّلام وقومه

الآيات (٧٣ - ٧٩)

كما أرسل الله تعالى إلى عادٍ أخاهم هوداً في جنوب الجزيرة العربيّة أرسل إلي ثمود أخاهم صالحاً في شمال الجزيرة العربيّة في العلا أو مدائن صالح وكما كانت عاد خلفاء قوم نوحٍ عليه السّلام كانت ثمود خلفاء عاد . ولا يختلف ما قاله صالحٌ عليه السّلام لثمود في الجوهر عمّا قاله نوحٌ وهودٌ عليهما السّلام وسائر الرّسل الكرام . لقد قال لهم ياقوم اعبدوا الله تعالى مالكم من إلهٍ غيره فقد جاءتكم النّاقة الّتي طلبتم معجزةً من ربّكم جلّ وعلا فاتركوها تأكل في أرض الله ولا تمسّوها بسوءٍ فيأخذكم عذابٌ أليم . واذكروا إذ جعلكم خلفاء في الأرض من بعد عاد قوم هودٍ عليه السّلام ومكّنكم من الأرض تتّخذون من سهولها

قصوراً صيفاً ومن جبالها قصوراً شتاءً فاذكروا نعم الله تعالى ولا تعيثوا في الأرض فسادا . وقال الملأ الّذين كذّبوا واستكبروا للمؤمنين المستضعفين أتعلمون أنّ صالحاً مرسل من ربّه جلّ وعلا قالوا نعم نحن به مؤمنون قال الّذين استكبروا إنّا بصالح الّذي آمنتم به كافرون . فذبحوا الناقة وعتوا عن أمر ربّهم وطغوا وبغوا وطلبُوا من صالحٍ عليه السّلام أن يأتيهم بالعذاب الّذي يعدهم به إن كان من المرسلين حقّاً . فأخذتهم الصيّحة والزّلزلة وأصبحوا في دارهم جاثمين لهول الصيّحة والزّلزلة أمواتاً فتولّى عنهم وقال ياقوم لقد أبلغتكم رسالة ربّي جلّ وعلا الّتي أئتمنني عليها وكنت النّاصح الأمين لكم ولكن لا تحبّون النّاصحين .

لوط عليه السلام وقومه

الآيات (٨٠ – ٨٤)

وأرسل الله تعالى لوطاً عليه السّلام يدعو قومه إلى عبادة الله تعالى وحده لا شريك له وينكر عليهم إتيان الفاحشة واعتلاء الذّكران ممّا لم يسبقهم إليه أحدٌ من العالمين والعياذ بالله . إنّه عليه السّلام ينكر عليهم أن يأتوا الرّجال شهوةً من دون النّساء اللّاتي استغنين بدورهن بالنسّاء عن الرّجال فكان القوم جميعاً مسرفين رجالاً ونساءً. والعجيب في أمر هؤلاء الشّاذّين أنّهم يأمر بعضهم بعضاً بالتّعاضد لإخراج لوط عليه السّلام وقومه المؤمنين من قرية القوم لأنهم أناسٌ يتطهرّون عن هذه القذارة وإتيان المنكر . وأنجى الله تعالى لوطاً عليه السّلام وأهله إلاّ امرأته فقد كانت من الغابرين في العذاب بسبب كفرها ودورها في مساعدة إتيان المنكر ، وقد تمثّل ذلك العذاب في هيئة الحجارة من السّماء الّتى نزلت في هيئة المطر وجعل عالي قرى قوم لوط سافلها وهكذا كانت عاقبة المجرمين .

شعيب عليه السلام وقومه

الآيات (٨٥ – ٨٧)

أرسل الله سبحانه وتعالى شعيباً عليه السّلام إلى مدين بقرب معان من طريق الحجاز . وقد تحدّثت السّورة الكريمة عن شعيب عليه السّلام وقومه في تسع آيات كريمات منها ثلاثُ آياتٍ كريماتٍ في هذا الجزء هي الّتي نستعرضها هنا . إنّ شعيباً عليه السّلام

يقول لقومه ياقوم اعبدوا الله تعالى وحده لا شريك له قد جاءتكم حجّةٌ واضحةٌ بالغةٌ من ربّكم عزّ وجلّ فأوفوا الكيل والميزان ولا تبخسوا النّاس ولا تظلموهم أشياءهم ولا تفسدوا في الأرض بعد إصلاحها بالمرسلين على جهة الخصوص . إنّ ذلك خيرٌ لكم إن كنتم مؤمنين بالله تعالى ربّاً . ويا قوم لا تقعدوا بكلّ صراطٍ مستقيم توعدون وتنذرون وتصدّون عن سبيل الله تعالى من آمن وتبغون الطّريق عوجاً والسّبيل ملتويا واذكروا فضل الله تعالى إذ كثّركم بعد قلّة وأغناكم بعد فقر وانظروا كيف كان عاقبة المفسدين السّابقين . ولمّا كان قومه منه عليه الصّلاة والسّلام فريقين مؤمناً وكافراً فقد تحدّث عن هذين الفريقين في أسلوبٍ حكيم فقد كان عليه الصلاة والسّلام خطيب الأنبياء لفصاحته وجزالة عبارته . إنّه عليه الصّلاة والسّلام يقول إن كان طائفةٌ منكم آمنوا بالذّي أرسلت به من ربّي جلّ وعلا وطائفةٌ أخرى لم يؤمنوا ، ويلاحظ أنّه يذكر صفة كلٍّ من الفريقين في الطّريقة الّتي ترضي المؤمنين والّتي لا تزعج غير المؤمنين ، فاصبروا حتّى يحكم الله بيننا وهو جلّ وعلا خير الحاكمين وأعدل الفاصلين . وهذه الآية الكريمة الأخيرة في هذا الجزء تتمشّى مع الآية الكريمة الرّابعة والعشرين من سورة سبأ . قال تعالى : ﴿ وإنّا أو إيّاكم لعلّى هدىً أو في ضلالٍ مبين ﴾ .

التفسير

الرسول ينذر بالقرآن الكريم الكافرين ويبشر المؤمنين

وللكافرين عذاب أليم وللمؤمنين ثواب عظيم في الأولى والآخرة

الآيات (١ - ١٠)

الٓمٓصٓ ﴿١﴾

تسعٌ وعشرون سورة من سور القرآن الكريم المائة والأربع عشرة سورةًابتدأت بهذه الحروف المقطّعة ، وأولى هذه السّور سورة البقرة . وما قيل هنالك يقال هنا وفي كلّ مناسبة . إنّ من العلماء من ذهب إلي أنّ هذه الحروف المقطّعةفي أوائل السّور من المتشابه الّذي استأثر الله سبحانه وتعالى بعلمه لذلك يقول في تفسيرها : الله أعلم بمراده بذلك . ومن العلماء من رغب في كشف الحجب عن هذه الحروف فكانت له اجتهادات . ومن ألطف الآراء الرّأي الّذي يذهب إلي أنّ هذه الحروف المقطّعة امتدادٌ للتّحدّي بالقرآن الكريم ففيها تنبيه للعرب أئمّة البيان وفرسان البلاغة في المقام الأوّل بأنّ القرآن الكريم الّذي عجزوا عن الإيتان بسورةٍ واحدةٍ من مثله تتألّف كلماته من هذه الحروف الّتي يستعملونها ويتألّف هو بدوره من هذه الكلمات الّتي كان منها نظمه المعجز الّذي يملأ كلّ نفسٍ عجباً بجليل معناه ، ويملأ كلّ أذنٍ طرباً بجميل مبناه .

كِتَٰبٌ أُنزِلَ إِلَيْكَ فَلَا يَكُن فِى صَدْرِكَ حَرَجٌ مِّنْهُ لِتُنذِرَ بِهِۦ
وَذِكْرَىٰ لِلْمُؤْمِنِينَ ﴿٢﴾

على عادة كلّ سور القرآن الكريم الّتي ابتدأت بالحروف المقطّعة في حديثها عن القرآن الكريم على الفور أو التّراخي ، مباشرةً أو غير مباشرة ، تتحدّث الآية الكريمة هذه عن القرآن الكريم فتقرّر أنّ القرآن الكريم أُنزل إليك أيّها الرّسول الكريم من ربّك جلّ وعلا بواسطة رسولٍ من الملائكة كريم هو جبريل عليه السّلام فلا يكن في صدرك أيّها الرّسول الكريم حرجٌ منه وضيقٌ شديد بسبب تكذيب قومك لك وأنت تدعوهم بهذا الكتاب العزيز إلي صراط العزيز الحميد ، وتنذرهم به بين يدي عذابٍ شديد . وهذا الكتاب العزيز ذكرى للمؤمنين وموعظة ، تمتلىء نفوسهم من خشية الله بسببه وتعى آذانهم الواعية معانيه السّامية ومراميه البعيدة .

وإذا كان لفظ حرج يفيد الضّيق في المقام الأوّل[1] فإنّه يصحّ أن يفيد الشّكّ وراء ذلك[2] وكأنّ الآية الكريمة تنهى المصطفى ﷺ عن أن يشكّ في كون القرآن الكريم موحىً إليه من ربّ العالمين . وتأمره بأن يطمئنّ إلى أنّ هذا القرآن كلام ربّ العالمين . وبذلك يأخذ هذا المعنى بسبب من قوله تعالى في سورة يونس[3] : ﴿ فإن كنت في شكٍّ ممّا أنزلنا إليك فاسأل الّذين يقرأون الكتاب من قبلك لقد جاءك الحقّ من ربّك فلا تكوننّ من الممترين ﴾ ونميل إلى كون المعنى الأوّل هو الأقرب . والله أعلم .

اتَّبِعُوا مَا أُنزِلَ إِلَيْكُم مِّن رَّبِّكُمْ وَلَا تَتَّبِعُوا مِن دُونِهِ أَوْلِيَاءَ ۗ قَلِيلًا مَّا تَذَكَّرُونَ ﴿٣﴾

بعث الله سبحانه وتعالى محمّد بن عبد الله ﷺ بشيراً ونذيراً للنّاس كافّة . وقد أومأت الآية الكريمة السّابقة إلى ذلك . والمعروف أنّ النّاس فريقان من المصطفى ﷺ مؤمنٌ وكافر . ولّما كانت سورة الأعراف مكّيّة نزلت قبل الهجرة فذلك معناه أنّ الكفر هو الغالب وأنّ الإنذار هو الغالب . وهذا المعنى رسّخته الآية الكريمة الّتي نحن بصددها . إنّ الآية الكريمة تأمر النّاس الّذين يغلب عليهم الكفر آنذاك بأن يتّبعوا ما أُنْزِل إليهم من ربّهم جلّ وعلا من قرآنٍ أوحاه الله تعالى إلى حبيبه المصطفى ﷺ ففي هذا الاتّباع الخير كلّ الخير ، وتأمرهم بألاّ يتّبعوا من دونه جلّ وعلا أولياء يأمرونهم بالإشراك مع الله تعالى غيره ويقودونهم الي مهاوي الرّدى .

وتنعى الآية الكريمة على القوم أنّهم لا يتّعظون اتّعاظاً قليلاً ولا يتذكّرون تذكّراً قليلا بمعنى أنّهم لا يتذكّرون مطلقاً ولا يتّعظون أبدا « قليلاً مفعول مطلق نائب عن المصدر فهو صفته أي تذكّرون تذكّراً قليلا » [4]

---

(١) تفسير الطّبريّ ٨/٨٥ .

(٢) تفسير الطّبريّ ٨/٨٦ .

(٣) الآية ٩٤ .

(٤) الجدول في إعراب القرآن وصرفه ٤/٢٩٣ .

وَكَم مِّن قَرْيَةٍ أَهْلَكْنَٰهَا فَجَآءَهَا بَأْسُنَا بَيَٰتًا أَوْهُمْ قَآئِلُونَ ﴿٤﴾

في سبيل إنذار الّذين لا يتذكّرون تذكّراً قليلاً تقرّر الآية الكريمة أنّ الله سبحانه وتعالى أهلك كثيراً من القرى الظّالم أهلُها ظلم أهل مكّة ، الكافِرِ أهلُها كفر أهل مكّة فجاء تلك القرى بأس الله وعذابه ، ووصل إليها فعلاً عقوبة الله تعالى ونقمته ليلاً وهم نائمون أو نهاراً وهم قائلون . « من القيلولة وهي الاستراحة وسط النّهار . وكلا الوقتين وقت غفلة ولهو »[1]

ولمّا كان البيات بمعنى اللّيل[2] وبالتالي يغلب عليه النوم ، وكانت القيلولة بمعنى استراحة وسط النّهار وإن لم يكن معها نوم[3] فذلك معناه أنّ غفلة القوم ولهوهم في الوقتين معاً ، ولكنّ مثل قوله تعالى في هذه السّورة الكريمة[4] : ﴿ أفأمِن أهل القرى أن يأتيهم بأسنا بياتاً وهم نائمون . أو أمن أهل القرى أن يأتيهم بأسنا ضحىً وهم يلعبون ﴾ يفهم منه أنّ جراءة القوم على الله تعالى بلغت شأواً بعيداً حتّى انتهوا في المجاهرة بالمنكر إلي الدّرك الّذي تجاوزوا معه المجاهرة بالمنكر ليلاً ، واللّيل بطبعه ساترٌ بظلامه هذا إلي قلّة الحركة فيه ، إلي المجاهرة بالمنكر في أشدّ أوقات النّهار وضوحاً وحركةً وضوضاء وهو وقت الضّحى دليلاً أكيداً على عدم الخوف من الله تعالى وعلى عدم الحياء من عباد الله تعالى . وليس وراء هذه المجاهرة بالمنكر وراء .

فَمَا كَانَ دَعْوَىٰهُمْ إِذْ جَآءَهُم بَأْسُنَآ إِلَّآ أَن قَالُوٓاْ إِنَّا كُنَّا ظَٰلِمِينَ ﴿٥﴾

تبيّن الآية الكريمة أنّ الذّين أخذهم الله تعالى بذنوبهم أخذ عزيزٍ مقتدر ليلاً أو نهاراً ما كان قولهم إذ جاءهم بأس الله تعالى وعذابه إلاّ أن اعترفوا بذنوبهم وقالوا بصريح العبارة إنّا

---

(١) تفسير ابن كثير ٢٠١/٢ .
(٢) تفسير الطّبريّ ٨٧/٢ .
(٣) الجلالين .
(٤) الآية ٩٧ ، ٩٨ .

كنّا ظالمين حينما وضعنا العبادة في غير موضعها وحينما عصينا الله تعالى وخالفنا أوامره فحلّ بنا غضب الله تعالى الّذي نحن أهلٌ له وجاءنا عذاب الله تعالى الّذي نستحقّه .

فَلَنَسْـَٔلَنَّ ٱلَّذِينَ أُرْسِلَ إِلَيْهِمْ وَلَنَسْـَٔلَنَّ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿٦﴾
فَلَنَقُصَّنَّ عَلَيْهِم بِعِلْمٍ وَمَا كُنَّا غَآئِبِينَ ﴿٧﴾

اللاّم من ﴿ فلنسألنّ ﴾ و ﴿ لنسألنّ ﴾ و ﴿ فلنقصّنّ ﴾ لام القَسَم لقَسَم مقدّر ، فليس الكلام في الآيتين الكريمتين كلاماً عاديّا ولا بسيطاً ولكنّه الكلام المقسم عليه . إنّ الآية الكريمة الأولى تبيّن في أسلوب القسم أنّ الله سبحانه سوف يسأل يوم القيامة الأمم عن موقفها من رسل الله تعالى إليها وسوف يسأل المرسلين عن الرّسالة الّتي ائتمنهم الله سبحانه وتعالى عليها . وهذا السؤال يراد به توبيخ الأمم المكذّبة رسلها المخالفة أمر ربّها لأنّ الله سبحانه عليمٌ بكلّ شيءٍ ولا يخفى عليه جلّ وعلا شيءٌ في الأرض ولا في السّماء . وهذا المعنى بيّنته الآية الكريمة التّالية وأكّدته .

إنّ الآية الكريمة تبيّن في أسلوب القسم كسابقتها أنّ الله سبحانه وتعالى سوف يقصّ على المرسلين وعلي أممهم بعلمٍ دقائق ما عملوا وتركوا فالله سبحانه وتعالى شهيدٌ على كلّ شيءٍ ولا يعزب عنه جلّ وعلا مثقال ذرّةٍ في السّماوات ولا في الأرض ولا أصغر من ذلك ولا أكبر إلاّ في كتابٍ مبين .

وَٱلْوَزْنُ يَوْمَئِذٍ ٱلْحَقُّ ۚ فَمَن ثَقُلَتْ مَوَٰزِينُهُۥ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ﴿٨﴾ وَمَنْ خَفَّتْ مَوَٰزِينُهُۥ فَأُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ خَسِرُوٓا۟ أَنفُسَهُم بِمَا كَانُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا يَظْلِمُونَ ﴿٩﴾

تتعلّق الآيتان الكريمتان بيوم القيامة الّذي يسأل الله سبحانه وتعالى فيه الرّسل وأممهم فتقرّر الآية الكريمة الاولى أنّ الوزن للأعمال يوم القيامة هو الحقّ وهو العدل فلا ظلم اليوم بحذف حسنة أو إضافة سيّئة ، كما تقرّر أنّ من ثقلت موازينه وكثرت حسناته وأعماله

الصّالحة الموافقة للشّرع والّتي تفضّل الله تعالى بقبولها فأولئك هم المفلحون الفائزون الخالدون في جنّات النّعيم .

وتقرّر الآية الكريمة الأخرى أنّ من خفّت موازينه وقلّت حسناته وأعماله الصّالحة أو انعدمت وكثرت سيّئاته وثقلت فأولئك الّذين خسروا أنفسهم بأن أدخلوها النّار وبئس القرار . وإنّما كان ذلك بسبب كفرهم وتكذيبهم للمصطفى ﷺ وتكذيبهم آيات الله تعالى وظلمهم لهذه الآيات الّتي لم يأتمروا بأمرها ولم ينتهوا بنهيها فظلموا أنفسهم ولم ينصفوها إذ أدخلوها جهنّم وساءت مصيراً بدلاً من أن يدخلوها الجنّة دار الخلود والنّعيم المقيم .

وَلَقَدْ مَكَّنَّٰكُمْ فِى ٱلْأَرْضِ وَجَعَلْنَا لَكُمْ فِيهَا مَعَٰيِشَ ۗ قَلِيلًا مَّا تَشْكُرُونَ ﴿١٠﴾

معايش : جمع معيشة من عاش يعيش عيشاً ومعيشة[1] أي مكاسب وأسباباً يكسبون بها ويتّجرون فيها ويتسبّبون أنواع الأسباب[2] .

قليلٌ من عباد الله تعالى الشّكور وكثيرٌ منهم الكفور . وإنّ سورة الأعراف المكّيّة كعادة المكّيّ من القرآن تُعْنَي بالمنذَرين الظّالمين الكفورين للنّعم . وهذه الآية الكريمة من الأدلّة على ذلك . فها هي ذي تخاطب الّذين يكفرون بآيات الله تعالى ويظلمونها ويظلمون أنفسهم معها في أسلوب القسم كذلك بأنّ الله سبحانه وتعالى قد مكّنهم في الأرض وثبّتهم فيها بعد أن خلقها جلّ وعلا ودحاها وقدّر فيها أقواتها وهيّأها كي يسكنها جنس الإنسان وجعل لهم فيها معايش ومكاسب وأسباباً يعيشون بها ويتكسّبون منها ويتسبّبون أنواع الأسباب ويقومون فيها بمختلف الأعمال ويحقّقون مصالحهم المتبادلة ويشهدون منافعهم المتنوّعة .

لقد كان المنتظر من النّاس أن يبادلوا الإحسان بالإحسان والشّكر والامتنان بعبادة الله تعالى وحده لا شريك له ولكنّهم للأسف بادلوا الإحسان بالكفران والجحود والنّكران فهم لا يشكرون لله تعالى شكراً قليلاً كما أنّهم لا يذّكّرون تذكّراً قليلا .

---

(١) تفسير ابن كثير ٢٠٢/٢ وتفسير الطّبريّ ٩٣/٨ .

(٢) تفسير ابن كثير ٢٠٢/٢ .

عداوة إبليس لآدم عليه السلام وذريته أزلية

الآيات (١١ – ٢٥)

وَلَقَدْ خَلَقْنَٰكُمْ ثُمَّ صَوَّرْنَٰكُمْ ثُمَّ قُلْنَا لِلْمَلَٰٓئِكَةِ ٱسْجُدُوا۟ لِـَٔادَمَ فَسَجَدُوٓا۟ إِلَّآ إِبْلِيسَ لَمْ يَكُن مِّنَ ٱلسَّٰجِدِينَ ﴿١١﴾

خلق الله سبحانه وتعالى آدم عليه السّلام من صلصالٍ من حمأٍ مسنون وخلق منه زوجه حوّاء عليها السّلام وبثّ من آدم وحوّاء رجالاً كثيراً ونساءً ، فآدم عليه السّلام خُلِق من غير ذكر وأنثى ، وخلقت زوجه حوّاء من ذكر هو آدم عليه السّلام ، وخلق سائر البشر باستثناء عيسى عليه السّلام من ذكرٍ وأنثى عن طريق اتّصال الذّكر بالأنثى والتّلاقح بين منيّ الرّجل وبويضة الأنثى ، أمّا عيسى ابن مريم عليه السّلام فإنّه خُلق من أنثى ولا ذكر . لقد خلق الله سبحانه آدم عليه السّلام وفي خلقه خلق ذرّيّته منه ومن زوجه حوّاء ، وصوّر آدم عليه السّلام فأحسن جلّ وعلا صورته ، وفي تصوير آدم عليه السّلام وزوجه تصويرٌ لذرّيّته وقد قال تعالى[1] : ﴿ الله الّذي جعل لكم الأرض قراراً والسّماء بناءً وصوّركم فأحسن صوركم ورزقكم من الطّيّبات . ذلكم الله ربّكم فتبارك الله ربّ العالمين ﴾ والآية الكريمة تنبّه النّاس إلى فضل الله تعالى عليهم وعلى أبيهم آدم وإلى تكريم الله تعالى لأبيهم آدم وفي ذلك تكريمٌ لهم حينما أمر الملائكة بالسّجود لآدم عليه السّلام سجود تحيّة وتكريم ، والسّجود بمعنى وضع الجبهة على الأرض ، فسجد الملائكة كلّهم إلاّ إبليس اللّعين فإنّه عصى أمر الله تعالى بالسّجود لآدم عليه السّلام ولم يكن من السّاجدين .

وإنّما كان التّعبير عن آدم عليه السّلام أساساً في هذه الصّيغة : ﴿ ولقد خلقناكم ثمّ صوّرناكم ﴾ لأنّ فضل الله تعالى على آدم عليه السّلام شاملٌ لذرّيّته .

قَالَ مَا مَنَعَكَ أَلَّا تَسْجُدَ إِذْ أَمَرْتُكَ ۖ قَالَ أَنَا۠ خَيْرٌ مِّنْهُ خَلَقْتَنِى مِن نَّارٍ وَخَلَقْتَهُۥ مِن طِينٍ ﴿١٢﴾

قال بعض النّحاة في توجيه قوله تعالى : مامنعك ألّا تسجد إذ أمرتك ، لاهنا

(١) سورة غافر ٦٤ .

زائدة . وقال بعضهم زيدت لتأكيد الجحد كقول الشّاعر

ما إن رأيت ولا سمعت بمثله

فأدخل إن وهي للنّفي على ما النّافية لتأكيد النّفي . قالوا وكذا هنا : ما منعك ألاّ تسجد ، مع تقدّم قوله : لم يكن من السّاجدين[1]

إنّ ربّ العزّة الّذي لا يخفى عليه ما توسوس به نفس كلّ مخلوق بما في ذلك نفس اللّعين الممتلئة كبراً وعلوّاً ، والّذي تغلب رحمته غضبه يسأل اللّعين كي يُعْلَمَ علم ظهور ما تخفيه نفسه ويعلمه الله تعالى : ما منعك أن تسجد لآدم سجود تحيّة وتكريم وقد أمرتك بذلك وأمرت الملائكة الّذين امتثلوا لأمري ؟ وكان جواب اللّعين قبيحاً كقبح فعله قال أنا خيرٌ من آدم خلقتني ياربّي من نارٍ وخلقت آدم من طين والطّين في نظر اللّعين لا يسمو سموّ النّار ، ونسي اللّعين أنّ الله سبحانه وتعالى خلق آدم عليه السّلام بيده وتفخ فيه من روحه جلّ وعلا .

قَالَ فَٱهْبِطْ مِنْهَا فَمَا يَكُونُ لَكَ أَن تَتَكَبَّرَ فِيهَا فَٱخْرُجْ إِنَّكَ مِنَ ٱلصَّٰغِرِينَ ﴿١٣﴾

استكبر اللّعين وعصى الله تعالى الّذي أمره بالسّجود لآدم عليه السّلام سجود تحيّةٍ وتكريم وصرّح بأنّه خيرٌ من آدم عليه السّلام فكان عذره من جنس فعله القبيح فأهانه الله تعالى من حيث أراد أن يكرم وأذلّه الله تعالى من حيث أراد أن يعزّ فأمره جلّ وعلا بأن يهبط من الجنّة أو من المنزلة الّتي هو فيها في الملكوت الأعلى[2] فما يكون للّعين أن يتكبّر فيها ولايصحّ للطّريد أن يتعالى ولا ينبغي للعاصي المصرّ على عصيانه أن يكون هنالك بل عليه أن يخرج ذليلاً حقيراً مهيناً مع الصّاغرين الملعونين المغضوب عليهم .

قَالَ أَنظِرْنِيٓ إِلَىٰ يَوْمِ يُبْعَثُونَ ﴿١٤﴾ قَالَ إِنَّكَ مِنَ ٱلْمُنظَرِينَ ﴿١٥﴾

هاتان الآيتان الكريمتان ينظر إليهما في ضوء الآيات الكريمات الثلاث من سورة

---

(١) تفسير ابن كثير ٢/٢٠٣ .

(٢) تفسير ابن كثير ٢/٢٠٤ .

الحجر . قال تعالى[1] : ﴿ قال ربّ فأنظرني إلي يوم يُبْعثون .قال فإنّك من المنظرين . إلى يوم الوقت المعلوم ﴾ لقد طلب اللّعين من ربّ العزّة أن يؤخّره ويمهله إلى يوم يبعث الخلائق بالنّفخة الثّانية ويقترن بهذه النّفخة أو الصّيحة الخلود ، وإنّ ربّ العزّة يمهل اللّعين إلى يوم الوقت المعلوم ، أي وقت النّفخة الأولى الّتي يموت بإذن الله تعالى الخلائق بسببها إلاّ من شاء ربّك من الملائكة والحور والولدان .

إنّ الله سبحانه وتعالى سبق إلى علمه ما سوف يفعل اللّعين بذرّيّة آدم ومع ذلك فإنّ ربّ العزّة لا يؤاخذ اللّعين بسابق علمه جلّ وعلا ولكن بما يعمل اللّعين . وإنّ الوسيلة إلى ذلك أن يؤخّر جلّ وعلا اللّعين إلى يوم الوقت المعلوم .

قَالَ فَبِمَآ أَغْوَيْتَنِى لَأَقْعُدَنَّ لَهُمْ صِرَٰطَكَ ٱلْمُسْتَقِيمَ ﴿١٦﴾

قال فبما أغويتني : الباء باء القسم . ما حرف مصدريّ[2] وأصل الإغواء في كلام العرب تزيين الرّجل للرّجل الشّيء حتّى يحسّنه عنده غارّاً له[3] .

يعتبر اللّعين أمر الله تعالى له بالسّجود لآدم عليه السّلام إغواءً له لذا هو يتوعّد بإغواء آدم عليه السّلام وذرّيّته ويقول : فبإغوائك لي يا ربّي لأقعدنّ لآدم وذرّيّته صراطك المستقيم وطريقك القويم بأن أصرفهم عن دين الإسلام الّذي ارتضيته لعبادك وعن كلّ خيرٍ أمرتهم به وأن أغويهم وأغرّر بهم وأزيّن لهم كلّ أنواع المعاصي والآثام .

وإنّ جملة قعد الّتي لها في اللّغة العربيّة القدرة على تبيين هيئة القاعد وتعيين حركته من أعلى إلى أسفل فيقال كان قائماً فقعد ، بعكس جملة جلس الّتي تبيّن هيئة الجالس وتعيّن حركته من أسفل إلى أعلى فيقال كان مضطجعاً فجلس ، إنّ جملة قعد في مثل حال غدر اللّعين وإغوائه لبني آدم قادرة على الإيحاء بتربصّ اللّعين الدّوائر ببني آدم ورصد حركاتهم ومتابعتهم وملاحقتهم واستدراجهم إلى فخاخه وشراكه وأحابيله حتّى إذا وثق

---

(١) سورة الحِجرْ ٣٦ ــ ٣٨ .

(٢) الجدول في إعراب القرآن وصرفه ٣٠٣/٤ .

(٣) تفسير الطّبريّ ٩٩/٨ .

باتّجاههم نحوه قعد لهم عند كلّ فخّ كي يعثروا به فيبادر بإلقائهم فيه والزّجّ بهم في شراكه وطرحهم في أحابيله .

ومن البيّن أنّ كلام اللّعين سلسلةٌ من الوقاحات والقباحات كفعله .

ثُمَّ لَآتِيَنَّهُم مِّنۢ بَيۡنِ أَيۡدِيهِمۡ وَمِنۡ خَلۡفِهِمۡ وَعَنۡ أَيۡمَٰنِهِمۡ وَعَن شَمَآئِلِهِمۡۖ وَلَا تَجِدُ أَكۡثَرَهُمۡ شَٰكِرِينَ ﴿١٧﴾

لم يكتف اللّعين بأن يقعد للمؤمنين الّذين يسيرون في الصّراط المستقيم والّذين يريدون مواصلة السّير في هذا الصّراط كلّ مرصد كي ينحرفوا عن هذا الصّراط إنّما يردف ذلك بأنّه هو الّذي يأتي إليهم ويصل عندهم إن هم لم يأتوا إليه ويصلوا عنده . إنّ اللّعين يهدّد بأنّه بعد أن يقعد لذرّيّة آدم عليه السّلام صراط الله تعالى المستقيم سوف يأتينّهم من بين أيديهم ومن خلفهم وعن أيمانهم وعن شمائلهم .

وانظر إلى جملة أتى الّتي تستعمل في القرآن الكريم دليلاً على البعد ، والمراد هنا البُعد المكانيّ . فالشّيطان الرّجيم في سبيل إغواء بني آدم مستعدٌّ لأن يأتي من أبعد الأماكن ومن باب الأولى أن يجيء من أقرب الأماكن . وإذا كان قادراً على أن يأتي من بعد فمن باب الأولى أن يكون قادراً على أن يجيء من قرب . وانظر إلى جمال استعمال كلٍ من حرفي الجرّ من وعن مرّتين اثنتين . وانظر وراء ذلك إلى ترتيب الجهات الأربع وروعة هذا التّرتيب .

ونحن في نظرتنا إلى ترتيب هذه الجهات الأربع بحاجةٍ إلى تمثّل الإنسان الرّاغب في الخير والولوج فيه من أقرب أبوابه ، وإلى تمثّل اجتهاد اللّعين في إيصاد هذه الأبواب الواحد تلو الآخر . لقد جرت العادة بأن يقصد الواحد منّا في القيام بأيّ عملٍ نافع الباب الّذي أمامه أو الطّريق الّذي بين يديه . فإذا كان الباب موصداً والطّريق مغلقاً أمامه تحوّل إلى الباب المقابل والطّريق الّذي وراءه . فإذا كان هذا الباب الآخر موصداً والطّريق الخلفيّ مغلقاً فإنّ الخير الّذي يحدو فاعله والنّفع الّذي يقصد يحملانه على الأخذ ذات اليمين . فإذا كان الحال هذه المرّة شبيهاً بالمرّتين السّابقتين أخذ ذات اليسار .

إنّ الصّراع الأزليّ بين الخير والشّرّ ، وإنّ العداوة البيّنة للشّيطان الرّجيم المتجدّدة

المتنامية يوحي بكلٍّ منهما التّرتيب المعجز للجهات في الآية الكريمة :﴿ ثمّ لآتينّهم من بين أيديهم ومن خلفهم وعن أيمانهم وعن شمائلهم ﴾ .

ويقرّر اللّعين النّتيجة السّيّئة الّتى سيئول إليها بنو آدم بعد أن أوصد في وجوههم أبواب الخير وفتح أبواب الشّرّ : ﴿ ولا تجد أكثرهم شاكرين ﴾ والمعنى أنّ أكثر بني آدم سيكونون من الكافرين . والمؤلم حقّاً أنّ ظنّ اللّعين قد تحقّق في الكثير من ذرّيّة آدم عليه السّلام . قال تعالى[1] : ﴿ وقليلٌ من عبادي الشّكور ﴾ وقال تعالى[2] : ﴿ ولقد صدّق عليهم إبليس ظنّه فاتّبعوه إلاّ فريقاً من المؤمنين ﴾

قَالَ اخْرُجْ مِنْهَا مَذْءُومًا مَّدْحُورًا ۖ لَّمَن تَبِعَكَ مِنْهُمْ لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنكُمْ أَجْمَعِينَ ﴿١٨﴾

مذءوماً : معيباً . والذّأم العيب . يقال منه : ذأمه يذأمه ذأماً فهو مذءوم . ويتركون الهمز فيقولون : ذمته أذيمه ذيماً وذاماً . والذّأم والذّيم أبلغ في العيب من الذّمّ[3] .

أمر الله سبحانه وتعالى اللّعين أن يهبط من الجنّة أو من الملأ الأعلى حينما أبى أن يسجد لآدم واستكبر وكان عذره قبيحاً كفعله . ويتأكّد هذا الهبوط بالأمر بالخروج من الجنّة بسبب تمادى اللّعين في العلوّ والاستكبار والعداوة لآدم عليه السّلام وذرّيّته . إنّ الله سبحانه وتعالى يأمر اللّعين بأن يخرج من الجنّة معيباً ممقوتاً ، مبعداً من رحمة الله تعالى مطرودا . وإذا صحّ أن نفهم أنّ الطّرد من رحمة الله تعالى بسبب معصية اللّعين وعدم امتثاله أوامر ربّه جلّ وعلا ، فإنّه يصحّ أن نفهم أنّ أبلغ العيب الّذي لصق باللّعين إنّما هو

---

(١) سورة سبأ ١٣ .

(٢) سورة سبأ ٢٠ .

(٣) تفسير الطّبريّ ١٠٣/٨ .

بسبب عداوته لآدم عليه السّلام دون وجه حقّ ، تلك العداوة الّتي ما تزداد إلاّ نماءً ، حسداً من اللّعين لآدم عليه السّلام وذرّيّته الّذين كرّمهم الله تعالى .

ويقسم ربّ العزّة أنّ من تبع اللّعين وذرّيّته من بني آدم ليملأنّ جلّ وعلا جهنّم منهم أجمعين . وجاء في الآية الكريمة استعمال ضمير المخاطب مفرداً وجمعاً : ﴿ لمن تبعك .. منكم ﴾ تغليباً للحاضر على الغائب .

وَيَٰٓـَٔادَمُ ٱسۡكُنۡ أَنتَ وَزَوۡجُكَ ٱلۡجَنَّةَ فَكُلَا مِنۡ حَيۡثُ شِئۡتُمَا وَلَا تَقۡرَبَا هَٰذِهِ ٱلشَّجَرَةَ فَتَكُونَا مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿١٩﴾

ينادي ربّ العزّة آدم عليه السّلام باسمه دليلاً على رفيع منزلته عند بارئه جلّ وعلا ويأمره بأن يسكن هو وزوجه حوّاء عليها السّلام الجنّة وأن يأكلا من حيث شاءا من ثمارها أكلاً رغداً لا عناء فيه ولا حظر عليه باستثناء شجرةٍ واحدة نهاهما ربّهما جلّ وعلا عن مجرّد الاقتراب منها فضلاً عن الأكل منها . إنّهما إن اقتربا من تلك الشّجرة الّتي لانعرف اسمها على وجه التّحديد وأكلا منها فإنّهما سيكونان من الظّالمين نفسيهما لانّ في الاقتراب والأكل عصياناً لله تعالى .

ومن البيّن أنّه لا نعيم وراء أن يسكن هذان الزّوجان الجنّة . وقد اقتضت حكمة الله تعالى أن يسكنا ، هما وذرّيتهما ، الأرض ويعمروها فهيّأت أسباب الخروج من الجنّة على نحوما بيّنت الآيات الكريمات التّاليات .

وإنّ مجيء الفاء العاطفة في القول : ﴿ فكلا ﴾ يصحّ أن يفهم منه أنّ الاهتمام منصبٌّ على الأكل وكأنّه هنا الهدف من سُكْنى الجنّة .

فَوَسۡوَسَ لَهُمَا ٱلشَّيۡطَٰنُ لِيُبۡدِيَ لَهُمَا مَا وُۥرِيَ عَنۡهُمَا مِن سَوۡءَٰتِهِمَا وَقَالَ مَا نَهَىٰكُمَا رَبُّكُمَا عَنۡ هَٰذِهِ ٱلشَّجَرَةِ إِلَّآ أَن تَكُونَا مَلَكَيۡنِ أَوۡ تَكُونَا مِنَ ٱلۡخَٰلِدِينَ ﴿٢٠﴾

الوسوسة : الخطرة الرّديئة وأصله من الوَسواس وهو صوت الحَلْي والهمس

الخفيّ[1] وهمس الصّائد وإغواء الشّيطان ابن آدم[2] .

ليبدي لهما ما ووري عنهما : ليبدي لهما ما واراه الله عنهما من عوراتهما فغطّاه بستره الّذي ستره عليهما[3] .

من سوءاتهما : من عوراتهما . وكني بالسّوءات عن العورات واحدتها سوءة وهي فَعلة من السّوء . وإنّما سمّيت سوءة لأنّه يسوء صاحبها انكشافها من جسده[4] والسّوء كلّ ما يغمّ الإنسان[5] .

طرد ربّ العزّة اللّعين من جنّته وأبعده مقيتاً من رحمته فزاد حسده لآدم عليه السّلام وحقده عليه ، وأمر ربّ العزّة آدم عليه السّلام وزوجه أن يسكنا الجنّة وأن ينعما بخيراتها ونهاهما عن مجرّد الاقتراب من شجرة بعينها لحكمةٍ اقتضتها مشيئته بأن يكون آدم خليفةً في الأرض فعمل اللّعين على إخراج آدم من الجنّة واجتهد في ذلك واستعمل كلّ وسائل كيده ومكره حتّى كان له ما أراد بإذن الله تعالى . والآية الكريمة تبيّن وسوسة اللّعين وخداعه .

تبدأ الآية الكريمة بحرف العطف الفاء الّذي يدلّ على التّرتيب مع التّعقيب بمعنى أنّ اللّعين شرع في الوسوسة مباشرةً عقب أمر ربّ العزّة آدم وزوجه بأن يسكنا الجنّة . وكانت الخطوة الأولى للّعين الّذي له القدرة على أن يجري من الإنسان مجرى الدّم من الجسد أن يوسوس لآدم وزوجه وأن يثير في خاطرهما الرّغبة في معرفة الحكمة من النّهي عن تلك الشّجرة وأنّ يهيج في نفسهما الرّغبة الجامحة في معرفة طبيعة تلك الشّجرة وحقيقتها وخواصّها المميّزة لها حتّى إنّها استحقّت أن يكون النّهي خاصًّا بها مقصوراً عليها . وكانت نفس آدم وحوّاء ميداناً لصراعٍ داخليّ عنيف بين ما يشعران به في أعماقهما من وجوب الامتثال لأمر الله تعالى بعدم الاقتراب من الشّجرة فضلاً عن الأكل منها وبين ما أثاره اللّعين في نفسيهما من حبّ استطلاع وفضول .

ولّما كان اللّعين على علمٍ بأنّ خروج آدم وحوّاء من الجنّة يعني أن يبدو لهما ماستره الله تعالى عنهما ، فضلاً عن غيرهما ، من سوآتهما وعوراتهما فإنّ الآية الكريمة تنصّ

---

(١) مفردات الرّاغب الأصفهاني « وسوس » ٥٢٢ .
(٢) معجم مقاييس اللّغة : « وس » ٧٦/٦ .
(٣) تفسير الطّبريّ ١٠٤/٨ .
(٤) تفسير الطّبريّ ١٠٨/٨ .
(٥) مفردات الرّاغب الأصفهاني « سوأ » ٢٥٢ .

على هذا الهدف الآخر الملازم للخروج من الجنّة .

وبعد أن فعلت الوساوس في نفس آدم وحوّاء فعلها أردف الوسوسة بالقول وأتبع الخاطر بالكذب الّذي تسلّل إلي آدم وحوّاء من الجانب الحبيب إلى كلّ نفس ألا وهو جانب الخلود والسّموّ والملك . جاء في سورة طه[1] قوله تعالى : ﴿ فوسوس إليه الشّيطان قال يا آدم هل أدلّك على شجرة الخلد وملكٍ لايبلى ﴾ وجاء هنا قوله تعالى : ﴿ وقال ما نهاكما ربّكما عن هذه الشجّرة إلاّ أن تكونا ملكين أو تكونا من الخالدين ﴾ والمعنى ما نهاكما ربّكما جلّ وعلا عن الاقتراب من هذه الشّجرة والأكل منها إلاّ لئلاّ تكونا ملكين أو تكونا من الخالدّين . وقيل : المعنى إلاّ كراهة أن تكونا ملكين أو تكونا من الخالدين .

ويلاحظ أنّ اللّعين يستعمل اسم الإشارة الدّالّ على القرب : ﴿ ما نهاكما ربّكما عن هذه الشّجرة ﴾ وكأنّ اللّعين قريبٌ من الشّجرة وكأنّ آدم وحوّاء ليسا بعيدين من اللّعين وليسا بعيدين من الشّجرة بمعنى أنّهما قريبان من الشّجرة وهذه هي بداية الزّلل ، وبهذا كسر اللّعين الحاجز الأوّل حاجز القرب ، وبقي عليه أن يكسر الحاجز الثّاني حاجز الأكل وإلى ذلك أشارت الآية الكريمة التّالية .

وَقَاسَمَهُمَآ إِنِّى لَكُمَا لَمِنَ ٱلنَّٰصِحِينَ ﴿٢١﴾

وقاسمهما : أي حلف لهما بالله[2] وأقسم حَلَف . وأصله من القَسامة وهي أيمانٌ تُقْسَم على أولياء المقتول ثمّ صار اسماً لكلّ حَلِف[3] .

لمن النَّاصحين : النّصح تحرّي فعلٍ أو قولٍ فيه صلاح صاحبه ، وهو من قولهم : نصحت له الودّ أي أخلصته[4] .

غلا في نفس آدم وحوّاء الصّراع بين نهي الله تعالى لهما عن مجرّد الاقتراب من الشّجرة وبين إغراء الشيّطان وإغوائه وأمره لهما بالأكل من الشّجرة . ولمّا كانت الوسوسة والكذب والإغراء أدّت بآدم عليه السّلام وحوّاء إلى كسر حاجز النّهي الأوّل وهو الاقتراب من الشّجرة وذلك في نظر اللّعين مؤشّرٌ على احتمال كسر الحاجز الثّاني والأخير ، ولمّا كان

---

(١) الآية ١٢٠ .

(٢) تفسير ابن كثير ٢/٢٠٥ .

(٣) مفردات الرّاغب الأصفهاني « قسم » ٤٠٣ .

(٤) مفردات الرّاغب الأصفهاني « نصح » ٤٩٤ .

المانع لهما من الأكل من الشّجرة هو التّحرّج من معصية الله تعالى فقد لجأ اللّعين إلى الوسيلة الّتي تدخل عليهما الطّمأنينة من هذا الجانب أمّا هذه الوسيلة فهي الحلف لهما بالله تعالى : ﴿ وقاسمهما إنّي لكما لمن النّاصحين ﴾ أنتما تتحرّجان من الأكل من الشجرة رغم رغبتكما الجامحة في ذلك خشية معصية الله تعالى وأنا أقسم لكما بالله تعالى بأنّي لكما من النّاصحين لكما الصّادق النّصح والمودّة الخالصي الحبّ وبأنّ أكلكما من الشّجرة فيه صلاحكما بأن ترقيا إلى مستوى الملائكة أو تكونا من الخالدين .

ولمّا كانت النّفس البشريّة تهوى السمّوّ وتحبّ الخلود وكان الله تعالى قد اقتضت حكمته أن يكون آدم عليه السّلام خليفةً في الأرض فقد صدّق آدم وحوّاء اللّعين وغفلا عن تحذير الله تعالى لهما من اللّعين وأكلا من الشّجرة وبدت لهما سوآتهما وندما حيث لا ينفع النّدم وإلى ذلك أشارت الآية الكريمة التّالية .

وكان بعض أهل العلم يقول : من خدعنا بالله انخدعنا له[1] .

فَدَلَّىٰهُمَا بِغُرُورٍ ۚ فَلَمَّا ذَاقَا الشَّجَرَةَ بَدَتْ لَهُمَا سَوْءَاتُهُمَا وَطَفِقَا يَخْصِفَانِ عَلَيْهِمَا مِن وَرَقِ الْجَنَّةِ ۖ وَنَادَاهُمَا رَبُّهُمَا أَلَمْ أَنْهَكُمَا عَن تِلْكُمَا الشَّجَرَةِ وَأَقُل لَّكُمَا إِنَّ الشَّيْطَانَ لَكُمَا عَدُوٌّ مُّبِينٌ ﴿٢٢﴾

فدلاّهما بغرور : التّدلّي الدّنوّ[2] أي حطّهما عن منزلتهما[3] ويقال : غرّه يغرُّه غَرّاً وغِرّةً إذا خدعه وأطمعه بالباطل وأصاب غِرّته ونال منه ما يريد[4] ويقال : ما زال فلانٌ يدلّي فلاناً بغرورٍ بمعنى مازال يخدعه بغرور ويكلّمه بزخرفٍ من القول باطل[5] .

بدت لهما سوءاتهما : انكشفت لهما سوآتهما[6] .

---

(١) تفسير ابن كثير ٢٠٦/٢ وتفسير الطّبريّ ١٠٥/٨ .

(٢) مفردات الرّاغب الأصفهاني « دلو » ١٧١ .

(٣) الجلالين .

(٤) انظر مثلاً مفردات الرّاغب الأصفهاني « غرر » ٣٥٨ .

(٥) تفسير الطّبريّ ١٠٥/٨ .

(٦) تفسير الطّبريّ ١٠٥/٨ .

وطفقا : أقبلا وجعلا[1] وأخذا[2] .

يخصفان عليهما : يشدّان عليهما[3] ويلزقان[4] .

من ورق الجنّة : عن ابن عبّاس قال : ورق التّين[5] .

تبيّن الآية الكريمة الخسارة الجسيمة الّتي لحقت بآدم وحوّاء عليهما السّلام بعصيانهما للرّحمن وطاعتهما للشيّطان الرّجيم وتقرّر أنّ اللّعين دلاّ آدم وحوّاء بغرور منه وحطّهما عن منزلتهما العالية الرّفيعة الّتي كانا فيها بخديعةٍ منه وزخرفٍ من القول باطل . وانظر إلى جملة ﴿ ذاقا ﴾ الّتي تبيّن أنّه بمجرّد ذوق آدم وحوّاء عليهما السّلام من الشّجرة وقبل أن تتمّ عمليّة الأكل كاملة كان العقاب من الله تعالى على العصيان فبدت لهما سوءاتهما وانكشفت لكلّ منهما عورة الآخر ، وذلك معناه أنّ عورة كلٍّ من الزوجين كانت مستورةً عن الآخر . وتجاه هذا التحوّل المفاجىء لآدم وحوّاء من حال السّتر إلى حال العري كان منهما ردّ فعلٍ سريع وفوريّ لستر الانكشاف وتلافي الافتضاح على الرّغم من كونهما زوجين ولكنّ النّقلة مفاجئةٌ وواسعة هذا إلى أنّ الفطرة الإنسانيّة السّويّة تأبى الانكشاف في المكان العامّ . لقد أخذ كلٌّ من آدم وحوّاء يخصفان عليهما من ورق الجنّة وأقبلا يشدّان عليهما ويلزقان من ورق التّين فيما يقال لأنّه عريض . ونستطيع أن نفهم أنّ همّ كلٍّ من آدم عليه السّلام وزوجه أن يستر عورته ابتداءً . وبينما كان آدم وحوّاء في ذهول المفأجاة وغمرة العمل ناداهما ربّهما جلّ وعلا . والمعروف أنّ النّداء يستعمل في حال البعد . والمعروف أنّ لفظ الرّب إنّما يستعمل في القرآن الكريم في حال الخصوص والتّنبيه إلى تربية الله تعالى عبده بالنعم ووجوب قيام العبد بالشّكر عليها . وبناءً على ذلك يكون في القول : ﴿ وناداهما ربّهما ﴾ بعدٌ وقرب . بعد النّداء وقرب المجيب للدّاعي إذا دعا ربّه جلّ وعلا .

إنّ ربّ العزّة يسأل آدم وحوّاء سؤلاً تقريريّاً : ألم أنهكما عن مجرّد الاقتراب من تلكما الشّجرة وأقل لكما إنّ الشّيطان الرّجيم عدوٌّ بيّن العداوة لكما .

---

(١) تفسير الطّبريّ ٨/١٠٥ .

(٢) الجلالين .

(٣) تفسير الطّبريّ ٨/١٠٥ .

(٤) الجلالين .

(٥) تفسير الطّبريّ ٨/١٠٦ .

وحينما يجيء في الآية الكريمة اسم الإشارة هذه الدّالّ على قرب الشّجرة وذلك في القول على لسان اللّعين : ﴿ وقال ما نهاكما ربّكما عن هذه الشّجرة ﴾ بينما يجيء في هذه الآية الكريمة اسم الإشارة تلك الدّالّ على بعد الشّجرة وذلك في القول على لسان ربّ العزّة : ﴿ ألم أنهكما عن تلكما الشّجرة ﴾ فذلك معناه أنّ آدم وحوّاء عليهما السّلام ابتعدا عن الشّجرة ولكن بعد فوات الأوان وبعد أن عصيا الرّحمن .

قَالَا رَبَّنَا ظَلَمْنَا أَنفُسَنَا وَإِن لَّمْ تَغْفِرْ لَنَا وَتَرْحَمْنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ الْخَاسِرِينَ ﴿٢٣﴾

هذه هى الكلمات الّتي تلقّاها آدم عليه السّلام من ربّه جلّ وعلا وتاب عليه بسببها والّتي أشار إليها قوله عزّ من قائل في سورة البقرة[1] : ﴿ فتلقّى آدمُ من ربّه كلماتٍ فتاب عليه إنّه هو التّوّاب الرّحيم ﴾ إنّ آدم وحوّاء عليهما السّلام يبادران إلى التّوبة إلى الله تعالى توبةً نصوحاً بعكس اللّعين الّذي لا يزداد إلّا تمادياً في السّفه والكفر ، وإنّ آدم وحوّاء عليهما السّلام يقولان ياربّنا ، يا من أسبغت علينا نعمك الظّاهرة والباطنة وربّيتنا بآلائك لقد ظلمنا أنفسنا بمعصيتك وطاعة الشّيطان الرّجيم رغم تحذيرك لنا منه وإن لم تغفر لنا ياربّنا وتشملنا بعفوك وغفرانك ، وإن لم ترحمنا وتعطنا فضلاً منك قسطنا من رحمتك الّتي وسعت كلّ شيءٍ لنكوننّ من الخاسرين ومن الهالكين .

قَالَ اهْبِطُوا بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ وَلَكُمْ فِي الْأَرْضِ مُسْتَقَرٌّ وَمَتَاعٌ إِلَىٰ حِينٍ ﴿٢٤﴾

شاء الله سبحانه وتعالى أن يجعل في الأرض خليفة ، آدم عليه السّلام وذرّيّته ، وها هى ذي مشيئة الله تعالى تتحقّق وله جلّ وعلا الحجّة البالغة والحكمة الكاملة .

---

(١) الآية ٣٧ .

وها هو ذا ربّ العزّة يأمر آدم وحوّاء عليهما السّلام وما اشتملا عليه من ذرّيّة بأن يهبطوا من الجنّة إلى الأرض ويخبرهم بأنّ بعض الذّرّيّة سيكون عدوّاً للبعض الآخر يظلمه ويعتدي عليه ، وبأنّ لهم جميعاً في الأرض مستقرّاً يستقرّون فيه ومتاعاً يستمتعون به إلى حين انقضاء أجل الواحد منهم وانقضاء آجالهم جميعاً حينما ينفخ إسرافيل للمرّة الأولى في الصّور فيموت الخلائق جميعاً إلاّ من شاء ربّك من الملائكة والحور والولدان .

جاء في الجلالين : « قال اهبطوا : أي آدم وحوّاء بما اشتملتما عليه من ذرّيّتكما . بعضكم ، بعض الذّرّيّة ، لبعضٍ عدوّ ، مِنْ ظلم بعضهم بعضا » ويقول ابن كثير[1] : « قيل : المراد بالخطاب في : اهبطوا ، آدم وحوّاء وإبليس والحيّة . ومنهم من لم يذكر الحيّة . والله أعلم . والعمدة في العداوة آدم وإبليس ، ولهذا قال تعالى فى سورة طه : قال اهبطا منها جميعا . الآية » .

قَالَ فِيهَا تَحْيَوْنَ وَفِيهَا تَمُوتُونَ وَمِنْهَا تُخْرَجُونَ ﴿٢٥﴾

تبيّن الآية الكريمة معنى الاستقرار والمتاع في الآية الكريمة السّابقة وتعمّق معنى الحين وتنبّه إلى البعث بعد الموت . إنّ آدم وذرّيّته يحيون في هذه الأرض ويموتون في هذه الأرض وفيها يدفنون ومنها يُخْرَجون حينما ينفخ بإرادة الله تعالى إسرافيل للمرّة الثّانية في الصّور فتحيا الخلائق مرّةً أخرى بإرادة الله تعالى ويحشرون لفصل الحساب ونيل الثّواب أو العقاب .

---

(١) تفسير ابن كثير ٢٠٦/٢ وانظر تفسير الطّبريّ ١٠٧/٨ .

توجيهات قرآنية لبني آدم

الآيات (٢٦ - ٣٦)

﴿ يَٰبَنِيٓ ءَادَمَ قَدۡ أَنزَلۡنَا عَلَيۡكُمۡ لِبَاسٗا يُوَٰرِي سَوۡءَٰتِكُمۡ وَرِيشٗاۖ وَلِبَاسُ ٱلتَّقۡوَىٰ ذَٰلِكَ خَيۡرٞۚ ذَٰلِكَ مِنۡ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ لَعَلَّهُمۡ يَذَّكَّرُونَ ﴿٢٦﴾ ﴾

بإرادة الله تعالى هبط آدم عليه السّلام وزوجه من الجنّة إلى الأرض كى تتحقّق الخلافة فى الأرض . وقد شاء الله تعالى أن يكون للّعين دورٌ في خروج آدم عليه السّلام وزوجه من الجنّة وهبوطهما وذرّيّتهما إلى الأرض . ولمّا كانت الأحداث الّتي أفضت إلى خروج آدم عليه السّلام وزوجه من الجنّة فيها الكثير من الدّروس والعبر والعظات فقد نبّهت الآيات الكريمات بعد ذلك على بعض هذه الدّروس والتّوجيهات ابتداءً بالآية الكريمة الّتي نحن بصددها .

إنّ الآية الكريمة تخاطب بني آدم مناديةً لهم على جهة الخصوص لأنّهم الّذين سيحملون أمانة الخلافة بعد أبيهم آدم عليه السّلام . وحينما نتأمّل أوّل الدّروس في الآية الكريمة نتبيّن أنّه ذو علاقةٍ بالهدف الّذي حرص عليه اللّعين حينما أغرى آدم وزوجه حوّاء عليهما السّلام بالأكل من الشّجرة : ﴿ ليبدي لهما ما ووري عنهما من سوءاتهما ﴾ .

والعجيب في أمر هذا الدّرس أنّه يعالج أهم سبب في انحراف كلّ الجماعات وكلّ الحضارات الّتي تنكّبت الصّراط المستقيم ولم تجب داعي الله تعالى . وتفسير ذلك أنّ كلّ الأمم الّتي انحرفت عن الصّراط المستقيم وابتعدت عن منهج الله تعالى قدّمت عنصر الجمال على عنصري الخير والحقّ فانتهى بها جميعاً الأمر إلى العُرْي والانغماس في حمأة الرّذيلة . ولا نستثني أمّةً واحدةً من هذه الأمم المنحرفة . إنّ من أقرب أهداف اللّعين وأهمها إغراء بني آدم بنزع الثياب وخلع عِذار الحياء وبخاصّةٍ المرأة ، وإنّما أقول وبخاصّةٍ المرأة لأنّ الجنسين هدف اللّعين ، استمراراً لعمله مع أبينا آدم وأمّنا حوّاء عليهما السّلام ، ومن أوضح الأمثلة على ذلك شواطىء العراة وأكتفي بهذه الإيماءة الّتي يفهم منها الدّرك الّذي انتهت إليه المرأة في تلك المجتمعات فهى ليست أكثر من سلعة ينالها ذو الحظّ الأوفر من مالٍ أو جاه أو ما شاكل ذلك فهي حقًّا[1] .

مسكينةٌ أوهموها بأن يدوم الشّباب
مسكينةٌ أقنعوها بأن تقصّ الثّياب

(١) أوحت المناسبة بهذه المقطوعة .